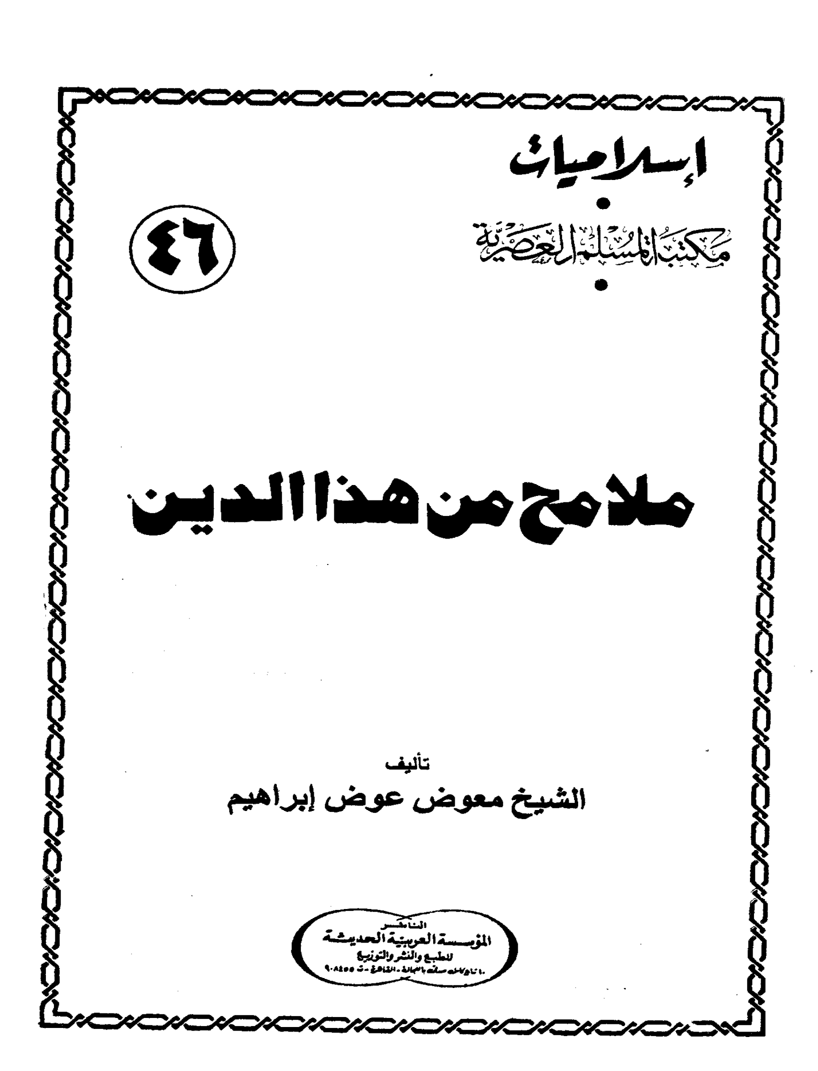

إسلاميات
مكتبة المسلم العصرية
٤٦
ملامح من هذا الدين
تأليف
الشيخ معوض عوض إبراهيم
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

سلسلة



سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة .
ويسعد به الخاصة

مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــالى :

« ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

(صدق الله العظيم)

مقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد .. ومن دعا بدعوته ، واستقام على طريقه حتى نلقى الله — وبعد .

فإن كل يوم جديد من عمر الإنسانية يضيف دليلا جديداً ، على أن الإسلام ، منذ أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على المسلمين ، ورضيه لهم ديناً ، هو — وحده — الملجأ والملاذ ، وهو — وحده — طوق الإنقاذ ، من طوفان مبادئ وأفكار ونظم وقيم ، يراد لها أن تكون بديلا عن دين الله ، فلا تلبث جدتها أن تذهب ، ولا يكاد بريقها يأخذ بأبصار المفتونين بكل طريف ، حتى يأخذ بأبصارهم غيره وغيره ، من هـذا الذى يؤلفه ويزيفه ويدعو له المغرضون من أعداء الإسلام ، والعميان الذين يلفون لفهم ، وينهجون فى الاعتقاد والتفكير نهجهم ، من غير أن يعملوا عقولهم — أنفس ما وهب الله الإنسان — وحاكم إليه الضالين فى دروب الأهواء — وما أكثرها — من أمثال الذين قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »[1] .

والذين عجب الله منهم رسوله صلوات الله عليه فقال : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا »[2] .

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»[3] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٢٢ (٢) سورة الفرقان ، الآية ٤٣

(٣) سورة الجاثية ، الآية ٢٣

إن الإسلام دين الحياة ، يرعاها ويستوعب كل ما تكون به فاضلة كاملة ، ومن نافلة القول ، أنه الدين الذى لا يعادى الحياة ، ولكنه يدعمها ، ويفسح بسواعد المؤمنين جوانبها ، ويحفز هممهم إلى إعمال مفاتيحها التى أعطاهم الله إياها فيما وهبه من عقيدة ، ومنح من إدراك ، وأعطى من علم ، وورث من ذخائر أوائلهم التى تحتذى ، حتى يبلغ الموقنون بالله من الحياة كمالها الممكن .. وما عرفت الحياة ديناً يدعو — مثله أو قريباً منه — إلى العمل لها ، والجد فيها ، وإيجاب ذلك بمثل قوله تعالى :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »(١) .

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(٢) .

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »(٣) .

إن للإسلام منهجه فى بناء العقيدة ، وجلاء التكاليف ، وإيجاب السلوك الذى يترابط به الناس ، ويتعاونون فى فرصة حياة ، على أساسها سيكون مصيرهم إلى الله وقدومهم عليه ، لتجزى كل نفس بما كسبت .

* * *

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٥ (٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠

(٣) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٢ — ٣٤

وللإسلام منهجه فى إنماء الصناعة والزراعة والتجارة ودعم الاقتصاد ، وفى استقرار الحكم ، وإيجاب العلم ، وصيانة الأسرة — نواة المجتمع الكبير — وفى أسلوب التعايش ، حتى مع الذين لم يعطفهم بعد إنصاف لحججه المسفرة وبيانه الواضح ، ورفقه الذى كان واقعاً جميلا ، يروى صوره المنصفون ، منذ كان الإسلام ، وما نزال نلق بها الذين يطوون جوانحهم على الكيد لنا ، ويعضون علينا الأنامل — كما قال الله — من الغيظ ، لأننا رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ، وكفرنا بما أشركوا بالله من عقائد موروثة ، وآلهة استعبدهم بها الوهم وسوء الفهم ، والجرى مغمضى العيون فى ركاب الآخرين ..

وإبراز ملامح هذا الدين ، محاولة أخرى بعد (قبس من الإسلام) و (الإسلام والأسرة) و (إنسانية العبادات الإسلامية) ولن تكون الأخيرة .. إن شاء الله .. لإلقاء الأضواء على إنسانية الإسلام ، وضرورته للحياة والأحياء ، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وأنه سبيل عزة اليوم ، كما كان يوم كثر الله به المسلمين من قلة ، وقوَّاهم من ضعف ، وأعزهم من ذلة ، وآواهم إلى دار الهجرة من تخطف وخوف ، وامتن بذلك فقال :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون »[1].

ورحم الله أبا حفص (عمر بن الخطاب) إذ قال : (والله لقد كنا

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٦

أذل الناس فأعزنا الله بهذا الدين ، فهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به ، أذلنا الله) .

ولقد قلت منذ أعوام فى مقدمة كتابى (قبس من الإسلام) :

« وبعد : فهذا (قبس من الإسلام) قدح زناده إخلاص واثق للإسلام ، ويقين صادق بأنه — وحده — أمل الدنيا فى حيرتها واضطرابها اليوم كما كان دائماً طوق نجاتها ، وأمل هداها »[١] :

وتزيدنى الأيام إيماناً بهذه الحقيقة ، وعزماً على المضى فى جلائها ، ما استمسك القلم بيدى ، وأعان على ذلك الله المعين على كل خير ، وما بقى سادراً فى غلوائه أمثال هؤلاء النفر الذين دار بينى وبينهم فى إطار هذا الحوار الذى ألهمته (هذه الملامح) ممن يضيقون بالإسلام وحقائقه من أهله المعدودين عليه ، ومن غير أهله الذين تواتيهم ظروف يذيعون بها فى الناس باطلهم ، فى حين يسكت أكفاء قادرون ، وتوضع العقبات والعراقيل فى طريق الذين يريدون إعلاء كلمة الحق على مفتريات الذين ، كأنما قال على لسانهم الخوارزمى :

وكنت امـرءً من جنـد إبليس فارتقى
بى الحـال حتى صـار إبليس من جندى
فلو مات قبـلى كنت أحسـن بعده
طرائق فسق ، ليس يحسـنها بعـدى

ونسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويبعدنا عن شرك الإلحاد والزيغ « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[٢].

---

(١) صدر الكتاب فى بيروت عام ١٩٦٢ م .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨

أجل .. إن (ملامح من هذا الدين) محاولة أخرى نقضى بها بعض حقه علينا ، وهى عهد نوثقه مع الله على المضى فى سبيل الدعوة إليه ، والتعريف بنعمته التى امتن بها فى يوم كريم ماجد من فوق عرفات فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »[١].

فهــل يهــدى الإله إلى مزيــــد   أسير به على درب الهــداة ؟ !

« على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خــير الفاتحين »[٢].

* * *

(١) سورة المائدة ، الآية ٣   (٢) سورة الأعراف ، الآية ٨٩

الايمان بالله طوق النجاة

ليس من الإنصاف ، ولا من الحكمة فى شىء ، أن تلح بإنسن علة ، أو يقعده عن أداء دوره فى الخلافة عن الله داء ، ثم لا يسارع بالبحث عن أسباب السلامة ، ووسائل الشفاء مما يجد ! !

وإن من الحماقة أن يكون على قيد ذراع من ذلك الموجع المعنّى طبيب لا يسأل على العلاج أجراً ولا يتقاضى على ما يقدمه من أدوية وأشفية ثمناً ، فلا يذهب المريض إليه ، ولا يستعين به فى دفع الداء ، وطلب العافية والشفاء ! !

وفى المجتمع المعاصر أقوام عللهم شتى ، وأدواؤهم شكول ، وإن كانت تنبع من أصل واحد ، هو غفلتهم عن دين سخى حفى حافل بمتطلبات الحياة الطيبة ، والآخرة المحببة ، سعد به الأولون ، وملكوا به قياد الدنيا دهوراً وأحقاباً ، وهو صالح اليوم وغداً وإلى قيام الساعة ليكونوا به — كما كان أسلافهم — خير أمة ، حين أذنوا إلى مثل قوله الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون »[1] .

ولو جرَّب الذين يطيلون التلفت إلى ما يصدره الشرق والغرب إلى مهد الرسالات السماوية وبلاد الإسلام من مذاهب وأفكار ، ووجوه حياة لم تسعد الذين رمونا بها ، وقلبوا لنا بها الأمور ، لو جرب هؤلاء أن يستجيبوا لله وللرسول فى مختلف شئونهم ، وأمور حياتهم ، لوجدوا

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

وصايا الإسلام وتشريعه قد جاوزت المدى فى اعتبارها للحياة ، وحلها لكل مشكلات الأحياء ، ولعاينوا من سعة أحكام دين الله ، وشمول تشريعاته ، واحتفاله بضروب التصرفات التى يحسبها أدعياء المعرفة ، وعبيد كل جديد ، شيئاً طارفاً جديداً ، ومكانها من الإسلام بين لا يخفى على من يرجع بصره فى كتاب الله وسنة مصطفاه وصور حياة الذين تخرَّجوا فى مدرسة الوحى ، ولا يستصعب رد هذا الجديد الطارف إلى روح هذا الدين من استهداف خير المؤمنين — قال تعالى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى »(١).

لقــد ورَّث الإســلام آباءنا كرائم وأمجاداً ، لم يلبث الأبناء أن بعثروها فى رياح شهواتهم — إلا قليل منهم — ولم يبق لهؤلاء منها إلا التغنى بها ، والحياة فى أكتاف الأولين .

ولو أن الذين يشغلهم سفساف الأمور عن نشدان الكمال ، قــد أنصفوا الإسلام من أنفسهم ، فظاهروه ، وآزروا رسالته صادقين ، لأيقنوا أن كل كسب لا يجىء فى ركب الإيمان بالله ، والاستهداء بهداه لا يكون غير ألهيات وسراب « يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً »(٢).

وفى ذلك الوهن والتخاذل والتمكين للأعداد — فى داخل حدودنا وخارجها — من رقابنا مرة أخرى بعد مأساة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ فى فلسطين ، ومنــازل عزيزة فى أفغانستان وفى مصر وســوريا ، بعد استقرار اليهود فى هذه البقاع المباركة إلى حين ، إلى شىء آخر قد يكون

---

(١) سورة طه ، الآيتان ١٢٣ و ١٢٤ (٢) سورة النور ، من الآية ٣٩

أنكى وأفدح، يكشف وجهاً من وجوه قول الله تعالى: « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »[١] .

وقوله : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقـوم يحبهم ويحبونه ، أذلة عـلى المؤمنين ، أعـزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »[٢] .

ولا سبيل إلى عيش رغيد ، ووجود سعيد ، سوى الإيمان بالله ، إيماناً بوحدانيته ، وأن بيده أقدار الحياة والأحياء ومصايرهم ، وأن يده فوق كل يد ، ودون سلطانه كل سلطان « ما من دابة إلا هـو آخذ بناصيتها »[٣] .

وأنه — سبحانه — ولى من اتقاه وأعطاه ولاءه كله ، وإن أغضب أسرى نزواتهم وأنانياتهم وعبيد وجودهم .

« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين »[٤] .

ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنهما : هل الهوى إله يعبد ؟ فقال نعم ، ثم قرأ قول الله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون »[٥] ؟ ! !

والإيمان بالله يوجب أن نجعل هوانا وفق أمره ونهيه ، فالنبى صـلوات الله عليه يقول : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لمـا جئت به) .

---

(١) ختام سورة محمد ، الآية ٣٨ (٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤
(٣) سورة هـود ، من الآية ٥٦ (٤) سورة القصص ، الآية ٥٠
(٥) سورة الجاثية ، الآية ٢٣

وكل ما جاء به النبي وأداه إلى البشرية — وما تزال حجته قائمة على الناس إلى يوم الدين — إنما هو وحى الله إلى مصطفاه ، ما ينبغى أن يستأخر عنه العقلاء أو يستقدموا قيد أنملة : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »[١].

« .. وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »[٢].

فأعطوا الله — فى أقل القليل — ما أعطى الشاعر إنساناً يسترزق ربه (ويقول) :

وقف الهــوى بى حيــث أنت   فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

ويوجب الإيمان بالله أن نتمثل علمه المحيط ، وقدره الراصد ، وحلمه الواسع ، واستدراجه للذين يستمرئون إمهاله للطغاة ، والذين ذاقوا حلاوة الإيمان ، واطمأنت بذكر الله قلوبهم ، وأنسوا به من خلال الصراع المستعر ، بين الإيمان والكفر ، وبين الخير والشر ، سوف لا يدعون ما استيقنوا من حق الله (أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى) لقول بشر مهما يكن مكانه وشأنه فى الحياة التى تمثل فى بعض حالاتها البحر الذى تغوص فى أعماقه الدرر ، بينما تطفو على سطحه الطحالب والهشيم .

* * *

وسيرسل المؤمنون مما بأيديهم من أضواء الإسلام فى أعقاب ما يزيف المزيفون ، فإذا الحق أبلج ، والباطل لجلج « وما يبدئ الباطل وما يعيد »[٣].

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦

(٢) سورة البقــرة ، الآية ٢٨٥

(٣) سورة سبأ ، الآية ٤٩

والإيمان بالله يفرض علينا أن ننصح له ، ونخاصم فيه ، وألا نجامل على حسابه أحداً ، فنغمض أعيننا على شيوع المنكر واستشراء الشر ، ونسكت عن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بين إخوة من حقهم علينا ألا ندع القذى فى أعينهم ، وهى التى نبصر بها ، وهى المرآة التى نرى فيها أنفسنا ..

أنت عينى ، وليس من حق عينى ترك أجفانهـــا عـــلى الأقـــذاء

وإذا كان (الدين النصيحة) كما يقول الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، فإن العربى القديم يقول : (والنصح أغلى ما يباع ويوهب) .

وإذا كان الشاعر الآخر يقول :

إن النصيحة تغــلو عنــد بائعها وليس أرخص منها عند شاريها
إنى نصحتك لا تنصح فتى أبداً خل النصيحة للمخدوع يسديها

فلن نرضى بالنصح بدلا ، ولن نعدل عن طريقه — طريق أنبياء الله ورسله وصالحى الناس منذ كان الناس — ورحم الله ابن عمر إذ يقول : (أيها الناس تهادوا النصائح كما تتهادون الأطباق) .

وأبو حفص رضوان الله عليه من قبله يقول من فوق منبر النبى صلى الله عليه وسلم : (رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوب نفسى) .

ويقول الحكيم المسلم : (صديق لك كلما لقيك ذكرك بعيب فيك خير من صديق لك كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً) .

فمع مَـنْ — من ذوى العلل الكثيرة ، والأدواء والشكوك — أبدأ الحديث ؟؟

أبالملاحدة منكرى وجود الله أبدأ ؟ أم بعبيد وجـودهم ولذائذهم ؟

أم بالذين يمارون فى كتاب الله ، ويشكون فى سنة نبيه ، ويغضون من أقدار صحابته الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه وركبوا معه صلوات الله عليه الصعب والذلول ، حتى أكمل الله الدين ، وأتم بالإسلام النعمة على المسلمين ؟

أم بأولئك الذين لا يعرفون شرف الكلمة حين يتحدثون عن الإسلام والدعاة إليه ، والذين يشرعون أقلاماً ، ليست من نوع القلم الذى نوّه الله به فى صدر سورة سماها باسمه ، ولا ترتوى بالمداد ، وإنما ريها الضغائن والأحقاد ، ولا تعرف غير الكذب والتجنى على الذين يأبون إلا أن يبقى الإسلام وضاء الجبين ، وأن يظل القرآن طلق المحيا ، كأن عهده بالسماء الساعة ، مصدقاً قول الله فيه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1].

والمؤمنون يلقون العزاء وأمداد اليقين فى نصر الله من أمثال قوله تعالى : « ... فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال * للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد »[2].

والمصلحون لا يداخلهم قنوط ، ولا يخامرهم يأس ، وهم يجدون العقبات تعترض خطاهم فى كل اتجاهات الحياة ، وإنما يزيدهم ذلك إصراراً على إضاءة الحياة بالإسلام ، موقنين أن الكلمة الطيبة لابد أن ينفع الله بها ..

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩ (٢) سورة الرعد ، الآيتان ١٧ و ١٨

ومن شعر الحكمة :

اطلب ولا تضجر من مطلب   فآفة الطالب أن يضجرا
أما ترى الماء بتكراره   فى الصخرة الصماء قد أثرا

أو كما يقول أبو إقبال الأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح :

(إن الكلمة الواعية الصادقة اليوم بذرة طيبة ، إن لم تؤت ثمارها عاجلا ، فستؤتى أُكلها غداً بإذن الله) .

والإسلام يربط به الله أبداً على قلوب الدعاة إليه ، فلا يفت فى أعضادهم لغو لاغ ، ولا ينهنه من عزمهم مثل ما قال سلمان رشدى فى لندن ، وعلاء الدين حامد فى مصر ، ولا الذين يعرضون (أولاد حارتنا) ، ولا الذين كتبوا أخيراً عن بدائل الخمر والربا واللواط ، بغير ما وعد الله المتقين فى الجنة . وياويل هؤلاء بما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون .

الاســـلام
يرسى قواعد العلم والحضارة

يظلم الإسلام — كثيراً — أقوام يتهمونه بالجمود والرجعيـة ، ويحكمون عليه بالقصور عن تلبية حاجات الحياة فى اضطراد سيرها ، وتجدد أحداثها ، وما يفرضه تداخل المسلمين واتصالهم بغيرهم من أهل الديانات المخالفة ، والمذاهب المادية ، من صور السلوك ، وآداب المعاملة ووسائل الكسب والصفق فى الأسواق ونظم الحكم .

والإسلام برىء الساحة من هذه المفتريات .. وما وراءها .. جملة وتفصيلا ، يشهد بذلك الذين استبطنوا الإسلام ولم يستظهروه ، والذين أوتوا أيسر حظوظ الإنصاف فأملوا لعقولهم فى كل قضاياه ، والذين نظروا بتجرد وصدق فى شىء من تاريخ الإسلام ومقررات الدّين الذى أنهى إليه منزله كل تشريع ، وناط به — جلت آلاؤه — سعادة الدنيا والآخرة ، وقال الصادق المصدوق صلوات الله عليه فى حجة الوداع : (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتى) متفق عليه .

وعقيدة التوحيد من أقدم القضايا التى استهدفها الأنبياء والمرسلون ، صلوات الله عليهم ، لأن توحيد الله فطرة ولد عليها كل مولود ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه) .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى — رحمه الله — فى كتابه (الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين العلمية) :

(إن الإحساس بالعقيدة ألصق بفؤاد الإنسان من كل إحساس فيه ، وليس المنكر لها بأقل إحساساً بها من سواه ، بل ربما كان تظاهره بالجحود والنكران حجة قاطعة على كونه أشد الناس تأثراً بها ، إلا أنه ضل الطريق ، فقذفت به حيرته إلى متائه من الشطحات ، هى ظلمات بعضها فوق بعض) .

وقال الأستاذ وجدى عن مناشىء العقيدة فى الإنسان :

(وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل ، فأجاد وأفاد ، هو الأستاذ الأمريكى (ماكس موللر) فقد كتب فيه كتاباً سماه (أصل الدين وارتقاؤه) أثبت فيه بالنصوص الدينية (الهندية — وهى أبعد الديانات عهداً وأقدمهن تاريخاً — أن الإنسان أول ما عبد ، عبد الخالق — جل وعلا — على صيغته غير المحدودة ، وأما هذه الأوثان والأصنام ، فليست إلا بنات الخيال ، استدعاها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به فى نفسه) .

وقال : (إن هذه الآلهة المجسمة أليست إلا تمثيلا طرأ على الإنسان بعد تلك الفكرة الطبيعية ، وبناء على هذا ، فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام (الله الحق) ، حتى قبل أن يجرأوا على الإشارة إليه باسمه) .

قال الأستاذ وجدى : ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الأديان كلها واحد ، وما سبب اختلافها إلا ما أحدثته النزعات الإنسانية ، والأهواء النفسانية من حب التجريد والتفسير والحصر .

أقول .. وآيات القرآن الكريم فى هذا المعنى كثيرة ، ومن أجل ذلك قال الله لمصطفاه : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »[1].

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ١٨

وقال سبحانه : « وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم »[١] .

وقرر الأستاذ وجدى أن هذا الكلام لا يجافى العقل ولا النقل ، وهو يعطى الدليل على معجزتين من أكبر المعجزات لسيد الوجود ، هما من أوضح دلائل نبوّته العامة لمن كان له قلب يذوق العلم ، ووجدان يحس بالحقيقة .

أولاهما : أن قول الأستاذ موللر : (إن الإنسان مفطور على الدين الخالص) إنما هو ترديد لمعنى هذه الآية الكريمة التى أنزلت على سيد الوجود قبل ميلاد موللر بثلاثة عشر قرناً تقريباً ، وهى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[٢] .

وقد رأيت أنه لم يتحدث بها فى العالم العلمى الأوربى إلا فى القرن التاسع عشر ، ولم يثبتها إلا كتاب (ماكس موللر عام ١٨٧٩ م) .

ثانيتهما : أن فلسفة الأديان أرتنا — كما نقلنا عن موللر — أن أصل الأديان كلها واحد ، وأن ما أحس به — وعمل الإنسان الأول — من الدين ، هو بعينه ما يحس ويعمل به أكبر إنسان فى العصر الحالى .

حتى قال : (وهذه أيضاً فكرة جديدة سبقهم إليها القرآن ، وقال صريحاً ، بأن أصل كل الأديان واحد ، وهو الأمر بعبادة الإله الواحد) .

والأستاذ وجدى يشير — لا ريب — إلى قول الله تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليه وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[٣] .

(١) سورة الشورى الآية ١٤ ، والبغى : شؤم ، والتفرق : مدرجة الهوان .
(٢) سورة الروم ، الآية ٣٠ (٣) سورة الشورى ، الآية ١٣

وقوله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون »[١].

أجل .. استهدف الأنبياء والمرسلون الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، والإيمان به ، رباً خالقاً رازقاً قادراً على كل شىء ، بيده ملكوت الدنيا ، وله السلطان ، وحده ، يوم يصير العباد إليه .. « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »[٢] .

قال نوح لقومه : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »[٣] .

وقال مثل ذلك هود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، وكانت عنايتهم بتوحيد الله ، وتقديم الدعوة إليه — سبحانه — على ما سواه فى أركان الإيمان ، وقواعد الدين ، أمارة أنه الركيزة الأولى لإيمان المؤمن ، بل إنه الإيمان كله ، فما سواه بدون توحيد الله مما يرفضه الله ، ويأباه ، ويرده على من يدعون مع الله غيره ، ويشركون به شيئاً من شجر أو حجر أو كائن لا يدفع عن نفسه .

قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٣٠ — ١٣٣
(٢) سورة مريم ، الآيات ٩٣ — ٩٥ (٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٩

يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً * إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً »[١].

وقال : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً »[٢].

وسنمضى بعقيدتنا الطهور وإيماننا النقى البصير نقول مع الأول :

وغضضت طرفى عن سواك فلم أجد

فى الكون غيرك من إله يعبد

مبتغين ما يفضى إليه الإيمان من سكينة نفس واطمئنان قلب وراحة ضمير ، قال تعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم »[٣].

وقال : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »[٤].

وقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهن بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »[٥].

يقول الأستاذ العقاد — رحمه الله — فى كتابه (عقيدة المفكرين فى القرن العشرين) تحت عنوان (ما هى العقيدة الدينية ؟) يقول القديس توماس كيمبس : (لو كان الله هو صفوة المقاصد التى نتشوق إليها لما خامرنا القلق بهذه الصورة) . وعلق على ذلك الأستاذ جوردون

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ١١٦ و ١١٧

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٣

(٣) سورة التغابن ، الآية ٩

(٤) سورة التغابن ، الآية ١١

(٥) سورة الرعد ، الآيتان ٢٨ و ٢٩

آلبورت فى كتابه (الفرد وديانته) فقال : (أترانى على خطأ حين ألمح فى هذه العبارة دليلا على طبيعة الاستطلاع أو الاستقراء فى العقيدة الدينية ؟! أليس معناها أن العقيدة إذا كانت قويمة سديدة وجد المؤمن مشكلاته محلولة مفسرة ؟ ووجد قلاقله ومخاوفه مهدأة مستقرة ؟ إنه لخليق إذن أن يهتدى إلى كشوف من المعرفة والفضيلة) .

قال الأستاذ العقاد : (يريد الأستاذ أن الإنسان يطلب المعرفة من وراء العقيدة والإيمان ، وأنه ينظر إلى الإيمان كأنه برهان على أنه قد وثق بالله فاستحق أن يهديه فى طريق المعرفة ، ويتجلى عليه بما هو أكبر من قدرته لو اعتمد على عقله وفهمه) .. فهل سمع العقلانيون أدعياء العلم المجرد !؟

إن الصلاة فى الإسلام شروطها : من طهارة الثوب والبدن والمكان ، واستشعار أننا فيها نناجى الله أقرب ما نكون منه ، كما يقول النبى صلوات الله عليه : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ، فلا يشغلنا — جهد استطاعتنا البشرية — عن الله فيها شىء من أموالنا وأهلينا وأمانينا ، وإنما ننشط إليها مسارعين ، مبتغين بها رضوان الله والأنس بالاتصال به ، وتحريك كل خلية من خلايانا فى ذلك اللقاء الرفيع مع الله الذى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً »[١].

وتوكيد الأخوة التى عقدها الله بين الإنسان وأخيه الإنسان بوشائج كثيرة ، بهذه الوشيجة الجديدة الفريدة من وشائج الإيمان ، حيث تتحاذى المناكب ، ويستقيم الصف ، وتتحد الوجهة والقصد ، كما اتحد العمل والأسلوب ، وتبقى بعد ذلك عبادة ملهمة معلمة أن تكون

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

كالجسد الواحد فى المنشط والمكره ، وفى السلم والحرب ، وعلى كل حال ، خليقة أن نبلغ بها ما كان يستهدف رسول الله وهو يقول لبلال : (أرحنا بها يا بلال) ، وما ألمع إليه ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) ..

ويتكلم العقاد فى كتابه (عقيدة المفكرين) عن ألكسس كاريل وكتابه (الإنسان ذلك المجهول) وعن رسالته (فى الصلاة) فيقول : (وإنما تستمد الصلاة قيمتها من عمقها وخلوصها) .

ويقول : (بالصلاة يسمو الإنسان إلى الله، ويدخل الله فى سريرته، وهى على ما ترى ضرورة لا غنى عنها لنمو الإنسان فى أرفع حالاته ، ولا ينبغى أن ينظر إليها كأنها عمل لا يلجأ إليه إلا الضعاف والمتسولون والجبناء ، كما قال نيتشه : (إنها شيء مخجل) ، فما الصلاة بأدعى إلى الخجل من شرب الماء والتنفس) .

(إن الإنسان ليحتاج إلى الله حاجته إلى الماء والأكسوجين، وهذا الشعور بالقداسة إلى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم هو تمام الازدهار والنضج للشخصية الإنسانية ..) .

ولقد أعجب بعد ما أوردت من كلام موللر وكاريل وغيرهما ، من قول الفيلسوف الإنجليزى المعاصر (برتراند رسل) : (إن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا كان لها سند ، كالسند المطلوب فى القضية العلمية) .

فنحن نحمد الله — غير متعصبين — على أن قضايا الإسلام وتكاليفه لا ينقصها الدليل ، ولا يتردد العقل السليم ، وهو يستقبلها بالرضى والقبول ، فالقرآن الكريم يحاكم الناس إلى عقولهم ، ويعرض وصاياه على أفكارهم وقلوبهم ، والمؤمن يعطى الله ولاءه وإذعانه فيما لم يلح له مغزاه ، ولم يظهر له فيه مراد مولاه .

ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف .. لو أبصر كاريل ! !

قال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب »[١].

ومكانة العلم فى الإسلام لا يجاريه فيها دين سماوى ولا نظام بشرى . لقد أسجد الله لآدم ملائكته بالعلم ، وأقسم فى كتابه بالقلم وما يسطرون فى سورة سماها باسمه ، وامتن على الإنسان بأنه « علمه البيان » ، ورفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين درجات ، وباهى بشهادة أولى العلم بوحدانيته ، وذكرهم بذلك معه ومع ملائكته فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[٢].

وكان أول ما نزل من الذكر الحكيم على النبى الكريم قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم »[٣].

وينوّه سبحانه بالعلماء والعقلاء فى مجال فهم آياته الكونية ، وآياته المنزلة ، وما ضرب فيها من أمثال تجلو الحقائق الربانية ، فقال : « إن فى ذلك لآيات للعالمين »[٤]. وقال : « وما يعقلها إلا العالمون »[٥].

وأود أن أنوّه — لمن يكفرون بالدين ويؤمنون بالعلم والتكنولوجيا أكثر من إيمانهم بالله ورسالاته — برجل منصف هو السياسى الألمانى (تون باين) الذى كان مستشار الرايخ قبل هتلر ، فقد قال فى مذكراته السياسية .. بتصرف :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨
(٣) سورة العلق ، الآيات ١ — ٥ (٤) سورة الروم ، الآية ٢٢
(٥) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣

(نحن الآن على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تقدمنا فى العلم ، حتى صرنا « عبيد العلم » وتقدمنا فى الاختراع ، فأصبحنا « عبيد الاختراع » وتمادينا فى استخدام الآلة إلى أن « حكمتنا الآلة » ، ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة لا أظن أننا سنهتدى إليها ، وهذا الأمل الوحيد فى النجاة ، هو أن « نؤمن » بأن هذا الكون له خالق ، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين ، وما على الإنسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين ، فإن فعلنا ذلك « تحررنا من العبودية » واستطعنا أن نحكم « العلم والاختراع والآلة جميعاً وبذلك ينجو الإنسان ») . أيكون « علم » علاء الدين حامد ، أثقل فى ميزان الاعتبار من علم هذا الرجل ؟!

يقول الأستاذ فريد وجدى فى (الحديقة الفكرية) : (ليس فى الإسلام عقيدة لا تنطبق على قوانين العلم والحس معاً ، ومن ادعى غير ذلك فليأتنا بسلطان مبين) .

وتكلم ، رحمه الله ، فى هذا السياق بما يأخذ حقاً بمجامع القلوب ، وأورد من كلام علماء الغرب .. وهم لا يهتمون عند المفتونين بكل وافد مستورد من الأفكار .. كلاماً يعكس فضل الإسلام وقضاياه وعلومه ولغته وشعرها ، على أوربا التى كانت يومذاك غارقة فى دجى الجهالة .

كان المسلمون بشهادة هؤلاء .. والفضل ما شهدت به الأعداء (أساتذة الدنيا ومعلميها) ، فما عدونا ، حتى تقدم غيرنا فى مضامير الحياة وتخلفنا ؟!

لقد شمر الناس فى شرق الدنيا وغربها فى العمل فى شتى حقوله ومختلف ميادينه ، وما يستطيع أحد أن يردهم عن بعض درجات الإيمان ، الذى هو فيما أسلفنا من آيات القرآن ، وكلام الرسول صلوات الله عليه ، فطرة فى الإنسان ، والذى تبرزه النصوص التى أوردناها

فى كلام القوم ، ولا ننكر ما فيهم من الفضائل النفسية التى تلهمها الرسالات السماوية الكبرى ، وما يخالطها فى بعض مجتمعاتهم من انحلال وتفسخ وذهاب إلى المدى البعيد مع دواعى الجنس وإعطاء أنفسهم كل ما تشتهى وتريد .. ولم تفتهم نتائج العلم المادى ، والعمل الموصول ، اللذين بسطا سلطانهما على أقطار الأرض ، بينما كانت غيبة الدين ، وغفلة أهل الحق عما استحفظوا من مواريث الآباء والجدود الذين بلغوا بألوية مجد الإسلام ورحاب عدالته وعلمه وحضارته ، جوانب ذوات عدد من الكرة الأرضية ، وآثر الأخلاف على ما عندهم من هدايات الله وتراث الأسلاف ، ما ساء من صنيع القوم وراء حدودهم ، وما قبح لا ما حسن وصلح .

كان ذلك كله مع تقبل كلام المبشرين ، ودعايات المستعمرين ، وإرجافهم بدين الله ، مدرجة تخلفنا عن ركب (مجتمع القرآن) الذى لم يذكر الإيمان فى آيات كثيرة منه إلا مقروناً بالعمل ، فى كل مجالاته التى تبنى الحياة كما أمر الله ، بعد أن تؤدى حقه فى أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ، حتى نجده خيراً وأعظم أجراً ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ..

ولقد عمل أسلاف لنا ، ووصلوا حاضرهم بماضى أوائلهم ، حتى قال عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الآباء نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنى ، ونفعل مثلما فعلوا

فما رضى رضوان الله عليه بشرف الانتساب إلى آبائه الأكرمين حتى يضيف إلى أمجادهم أمجاداً ينأى بها عن النذير المسمع الذى يصرخ بنا اليوم من واقع مروع فى أرضنا المحتلة ، ومقدساتنا المستباحة ... ورحم الله شاعر العروبة والإسلام أحمد شوقى إذ يقول :

أرى طوفان هذا الغرب يطغى وأهـل الشرق سادته نيـــام
فإن لم يأتنـا نـــوح بفـلك على الإسلام والشرق السلام

ولقد حاضرنا المسلم الإنجليزى الأستاذ خالد شلدريك عام ١٩٣٨ بدار جمعية الشبان المسلمين فى موضوع (كيف هدانى الله إلى الإسلام)؟ وأذكر مما قاله ليلتئذ بعد أن نفى عن نفسه أنه اعتنق المسيحية فى يوم ما ، وتكلم عن فكرة التثليث ومنشئها ، قال :

(وليس عندى شك فى أن الدين الإسلامى سيكون يوماً ما ، الدين الذى يسود العالم أجمع ، وهذا يتوقف على سبب جوهرى ، وهو أن يكون المســلمون بأعمالهم أمثلة حية ونماذج صـادقة لوصايا الإســلام وتوجيهاته ، ترى فيها الأمم والشعوب الأخرى تعريفاً عملياً بهذا الدين) .

(وذكر أنه لاحظ فى تجواله فى البلاد الإسلامية أن المسلمين حيث يكونون أكثرية فى بعض البــلاد ، يغلب عليهم الضعف والتـــواكل والتفرق ، وإذا كانوا أقلية فى بعضها الآخر فإنهم يكونون أكثر تمسكاً بمبادئ دينهم ، والعمل بما يأمرهم به من دواعى القوة والتقدم) .

ومن الطبيعى إذا كان غير المسـلمين يرون المسـلمين على خـلاف ما يأمرهم به دينهم ، أن يظنوا أن هذه الحالة المخالفة للدين هى من أوامر الدين ، فينفروا من الإسلام بسبب ذلك ، بل لو علم غير المسلمين بأن ما عليه المسلمون مخالف لحقيقة دينهم ، فإنهم معذورون إذا قالوا : لو كان فى دين المسلمين خير لاتبعوه واستمسكوا بأحكامه ، ولم يخالفوا شيئاً من أوامره ونواهيه) .

وبعد أن عقد مقارنات كثيرة أبرز فيها سمو الإسلام وفضله ، وامتياز القرآن ، كتاب هذا الدين ، على ما يذكر الناس من كتب الأديان الأخرى قال : (ولما شرعت أدرس عقائد الإسلام بعـــد أن

انتهيت من الوقوف على حقائقه الكثيرة ، وجدت جميع حقائقه يطمئن إليها العقل ، فعقيدة التوحيد الخالص التى امتاز بها الدين الإسلامى ، هى أصح العقائد التى عرفها البشر ، وهى كاملة فى توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وإعلان صفات الكمال لبارئ الكون — سبحانه — والاعتراف بكل من أرسل الله من رسل، وبجميع ما أنزل من كتب) .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »[1].

وتلوح فى الأفق الإسلامى أكثر من إمارة على أننا صحونا من نوم طال ، وتباعدت أطراف ليله ، واعتكر ظلامه ، وفاء إلى الله أقوام كانوا يجاهرون بالكفر ، ويفاخرون بالإلحاد ، جهلا بالإسلام ، أو طلباً لما فى أيدى أعدائه من حطام ، أو تشبهاً بآخرين يظنون أن ذلك اللون من التفكير هو الثقافة الجديدة ، والعلم العصرى ، والفهم المتحرر وإذا كان من هؤلاء من راحوا يتناولون هذا الدين وكتابه وعلومه ورجاله فى مقالات وبحوث وكتب ، فإننا نسأل الله أن يذيقهم من رحيق معرفته ، ونور حكمته ، ما يبلغ بهم رحاب الإيمان ، ومستقر الهدى ، وأن يرد إلى جادة الصواب أولئك الذين لم ينصفوا من أنفسهم حقائق السماء ورسالات الأنبياء ، فهم يقولون مقالة أهل الجاهلية الأولى : « نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »[2].

ولقد لقيت منهم من أيام من لا يزالون يؤمنون بنظرية (دارون) فى النشوء والارتقاء دون أن يكلفوا أنفسهم النظر فيما قال شركاء

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ (٢) سورة الجاثية ، الآية ٣٤

(دارون) فى نظريته ، والعلماء الذين جاءوا من بعدهم ممن أورد العقاد كلامهم فى كتابه (عقائد المفكرين) .

وجادلنى قريباً رجل فى الجنة ، وأنها — كما زعم — ليست كما يصورها القرآن ، غرفاً من فوقها غرف مبنية ، وحوراً وولداناً ، وأشجاراً وثماراً وأنهاراً من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، ومن عسل مصفى .

وجاء (علاء حامد) فى هـذه الأيام ينكر الألوهية والرسالات والرسل ، ويزرى بما قدم إبراهيم للملائكة ، وبفداء إسماعيل ، وبمائدة عيسى ، ويزعم أن الرسل من صنع البشر .. وهكذا يلقى باسم الفكر والتجديد أبالسة من الدكاترة المفكرين .

إن هؤلاء يعيشون بعقدة الخواجة (دنلوب) وينفقون من تركة الاستعمار الذى حاول أن يجعل الأمم التى فدحت به تعيش بغير دين ، فلما استعصى عليه ذلك ، راح يهز أخلاقها بمظاهر الحضارة الهادمة ، وأساليب المدنية الكاذبة ، ويزخرف لها من ذلك ما يصرفها عما فى الديانات السماوية ، وفى الإسلام بخاصة ، من وسائل الرقى والسعادة النظيفة فى المأكل والمشرب والملبس والمركب ، وإعطاء النفس مايطبها ويجمها من عناء وكلال ..

« يا بنى آدم خـذوا زينتكم عنـد كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نُفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرَّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »[1] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٣١ — ٣٣

وإذا لم يقـد القرآن هـؤلاء إلى الإسـلام ، فعسى أن ينبههم من غفلاتهم ، ويوقظهم من سكر شهواتهم قول رينان : (يمكن أن ينعدم كل شيء ، ولكن يستحيل أن ينمحى الدين أو يتلاشى) . وقوله : (الإنسان حيوان متدين) .

ولقد اعتزم عبد الله بن المقفع أن يعتنق الإسلام بعد أن أخـذته فى مجوسيته براهينه ، وغلبت فيه بلبلته حجته ويقينه ، فلما أمسى من ليلته قبل أن يعلن إسلامه مضى يمارس طقوس مجوسيته ، فلما سألوه : كيف يأخذ فى أمور أيقن بطلانها ، وأزمع الانخلاع عنها إلى الأبد ؟ قال : كرهت أن أبيت على غير دين ! !

أفيرضى أن يكون الذى يعيش بغير دين (مجرد حيوان) كما قال رينان ؟ !

ولن يغنى عن الإيمان بالله ورسالاته علم أو فلسفة .

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعـه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »[١].

قال الأستاذ العقاد فى كتابه (عقائد المفكرين) عن (فقدان العقيدة وأثرها) .. قال الشاعر الناقد اللورد فانسيرت الذى قام بمهام السياسة الخارجية زمناً طويلا فى الوزارة البريطانية فى مجال تقديم أقوال طائفة من المفكرين عن (مستقبل العقيدة) قال : (إن فقدان الثقة بما فوق الطبيعة على صلة بفقدان الثقة بأنفسنا ، وكلاهما لم يسعد أحداً ، بل أعقب بعده خللا فى ميزان الحياة لم تصلحه مذاهب الشك واللذة) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١٧٥ — ١٧٧

ثم أشار إلى (فقدان العقيدة) فى فرنسا فقال : (إنه ساقها إلى المسالمة والاستسلام قبل الأوان) .

(إن فقدان العقيدة فى ألمانيا ساقها إلى بديل لها من العصبية والنازية) .

(ولولا البحر حول الجزر البريطانية لساقها فقدان العقيدة إلى مصير كهذا أو ذاك) .

قال الأستاذ العقاد بعد إيراد كلام طويل لفانسرت :

(ويتبين فى جملة الآراء المتقدمة ، أن العقيدة التى يصح أن توصف (بالدينية) حتى العقيدة التى تعتمد على سند فوق الطبيعة ، وأن العقيدة على أية حال قوة مطلوبة لا يستغنى عنها من وجدها ، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها ، ولا يرفضها من اعتصم فيها بمعتصم ، واستقر فيها على قرار لله) .

والأستاذ وجدى يقول واثقاً مطمئناً فى حديقته الفكرية :

(لم يخل عصر من أعصار التاريخ من الشعور بالحاجة إلى هذا السند — الإيمان بالله — وفضلا عن كونه لم يقل فى هذا العصر ، صار أقوى مما كان قبلا ، على نسبة سمو الإدراك ، وسيتزايد كلما ارتقى الإنسان فى سلم الكمال ، ولا نقول ذلك مجرداً عن البرهان ، وخير عبارة أمامى هى كلمة (سبتييه) : لماذا أنا متدين ؟! ..

(إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لكونى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى ، يقولون لى ذلك أثر من آثار الدراسة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم :

قد اعترضت على نفسى غالباً بنفس هـذا الاعتراض ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يستطيع أن يحلها .. إن ضرورة التدين أشاهدها فى حياتى الشخصية ، أشاهدها بأكثر قوة فى حياتى الاجتماعية البشرية ، فهى ليست بأقل تشبثاً منى بأهداب الدين ، فعبثاً تغلبها العبادات التى اعتنقتها ثم هجرتها (يعنى أن كل ذلك لا يجعلها تسأم الدين) .

ثم قال : (إن الدين مخلد ، وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه — تأمل هذه الكلمة وكلام بعض المعاصرين — نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى ، والتجارب الحيوية المؤلمة) .

ثم قال : (إذن فلا يفرحن أعداء الدين ، ولا يتكدرن أنصاره ، لأن فرح الأولين وكدر الآخرين يثبت من كلا الحزبين عدم معرفتهما بأصله وينبوعه ، فإنهم إن بحثوا عنه فى أنفسهم وجدوه حياً فى حياتهم الداخلية على قدر ما يجدون مظاهره الخارجية (يريد بذلك الخرافات التى ألصقت بالديانات) .

وختم عبارته بقوله : (بالديانة ابتدأت الإنسانية بأن تحيا فى نفسها، وبها أيضاً ستقوى وتنتهى) .

إن الدين — كما أراده الله وأداه مصطفاه — صلوات الله عليـه ، فى الإسـلام المهيمن على ما تقـدمه من رسالات الله — هـو عقيدة وشريعة ، ونظام حياة ، وضع أصولها الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، وبين فصولها الله الذى يعلم من خلق ، وما يجمل بهم ويصلح لهم من أخلاق وآداب ، لا يشرق بغيرها وجه الحياة أبداً ، وإلى بعض ذلك تشير كلمة (كانت) :

(إن فصل الدين عن الأخلاق خطأ كبير) . وهى حقيقة تجـلوها الأزمات التى تواجه الشعوب، وتكاد تأتى على بناء حياتها من القواعد) .

فلن يكون الإنسان بعد اليوم عبداً لغير الله ، ولن يكون أسير هواه ولن يكون همّ الدنيا — وحدها — بمثنيه عن أخراه ، ولكنه سيعتصم بدينه الذى أحل له الطيبات وحرّم عليه الخبائث وكرَّمه ربه ونعمه ، وعلمه كيف يكون أقدر شىء على الانتفاع بما خلق الله من خيرات أرضه وسمائه ، فى تفاؤل بالحياة ، وثقة من أنه سيكون فى غد .. بالأمـل والعمل ، لا بالتمنى وترديد حديث الآباء والأجداد .. يزداد مع الأيام استمساكاً بالإسلام ، جاعلا هواه تبعاً لما جاء به النبى عليه الصـلاة والسلام ، عارفاً أن إقبال حظوظ الحياة على من أدبر وتولى عن الله ، ليس إلا إمهالا واستدراجاً سيطلـون به — لا محالة — على مؤاخـذة عاجلة أو آجلة لا تنفعهم فيها شفاعة الشافعين .. « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب »[1].

يقول ابن عبد ربه فى كتابه (العقد الفريد) :

يا وليتـا من موقف ما به   أسرع من أن يحكم الحاكم
أبـارز الله بعصـيانـه   وليس لى من دونه راحم

إن الإسلام — وحده — بعقيدة التوحيد ، وبما أوجب الله فيه من عبادات إنسانية لا تشق على مكلف ، وبما فصَّل من سلوك وآداب ، لا تصلح الحياة فى مختلف حالاتها إلا عليها ، هـو دين الله وسبيله الذى شرعه لعز الدنيا وشرف الآخرة ، لا عوض عنه ، ولا بديل فى شىء من ذلك ، منه ، ومرة أخرى ، فإذا لم يأخذ بعض الناس هذه الحقيقة من فطرة الله فى أنفسهم ، ولم يستبينوها من رسالات المرسلين ، ومن القرآن الذى حفظـه الله ، ما بقيت الحيـاة من تآمر المتآمرين عليـه المتربصين به — وما أكثرهم فى أعصار وأقطار — فعسى أن يكبح جماحهم ، ويزكى أرواحهم قول الفيلسوف الروسى تولستوى :

(١) سورة الرعـد ، الآية ٤١

(حسب الإسلام فخراً أنه هدى أمة بأجمعها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام ، بعد الخصام وسفك الدماء لأتفه الدواعى ، وفتح لها طريق الرقى والمدنية ، وهو عمل عظيم ، لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة فوق قوة البشر) .

ويقول (إسحق تابار) رئيس الكنيسة الإنجليزية فى كلمة بمؤتمر الكنيسة : (الإسلام ينشر لواء المدنية التى تعلم الإنسان ما لم يعلم ، والتى تقول بالاحتشام فى الملبس ، وتأمر بالسلامة والاستقامة وعزة النفس ، فمنافع الإسلام وفوائده من أعظم أركان المدنية التى لا ريب فيها).

وقال (سديو) أحد أعضاء جمعية العلماء الفرنسية :

(وبعد ظهور النبى صلى الله عليه وسلم الذى جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً ، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها فوق نهر (تاج) فى أسبانيا إلى نهر (الجانج) فى الهند ، ونشرت على منار الإشادة أعلام التمدن فى الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها فى دوائرها فى القرون الوسطى) .

(إنهم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم ، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التى امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ، ولم يكفهم الاحتفاظ بكنوزها التى عثروا عليها ، بل اجتهدوا فى توسيع دوائرها ، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول فى عجائبها) .

ثم استشهد (سديو) بعد أن برَّ وصدق بقول (إسكندر همبولد) :

(إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة فى شواطئ نهر (الفرات) إلى الوادى الكبير بأسبانيا ، وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم ، لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى

الدنيا تأثيراً لا يشتبه بغيره ، فكانوا فى طبيعتهم مخالفين لبنى إسرائيل ، الذين لا يطيقون مخالطة أحد من الناس ، فإنهم خالطوا غيرهم ، من غير أن يختلطوا به ، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ، ولا ينسون أصلهم الذى خرجوا منه ، وما أخذت أمة (ألمانيا) من التمدن إلا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم ، بخلاف العرب ، فإنهم كانوا يحملون التمدن معهم ، فحيثما حلوا حل معهم ، فيبثون فى الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم ، وأشعارهم الشهيرة التى كانت أساساً بنى عليه غيرهم أشعارهم) .

ثم يقول : (ونعود فنؤكد أنه ثبت عندنا بما صنعه العرب واخترعوه ، رجحان عقولهم ، فى ذلك الوقت الذى وصل صيته إلى أوربا ، وهذا حجة على أنهم — كما قال غيرنا ونحن نعترف به — أساتذتنا ومعلمونا) .

وأرانى أتمنى مع المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى ما تمنى وهو يقول :

(هل يأتى على المسلمين زمان يلتفتون فيه إلى ما بين أيديهم من نواميس الحياة ، فيدهشون الأمم بسرعة نهوضهم من كبوتهم ، كما أدهش آباؤهم العالم من قبل « ولتعلمن نبأه بعد حين »[1] .

يا قومنا ، ويأيها المنصفون ، تعالوا إلى فردوس السلام ، وحصن الأمانى ، فى رحاب الإسلام ، تعالوا إلى عقيدة التوحيد ، أصفى وأصدق ما عرفتها البشرية ، توحيداً لله فى ذاته وأفعاله ، وحقه فى أن يفرد بالطاعة ، ويقصد — دون غيره — بالعبادة ، ويستدفع به الشر ، ويستمنح منه الخير ، ونلوذ منه بأكرم ملاذ على كل حال .

« قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد »[2] .

(١) سورة ص ، الآية ٨٨ (٢) سورة الإخلاص .

منكروا وجود الله
فى عصر النور

إن منكرى وجود الله فى (عصر النور) كما يسمونه اليوم ، واهمين هم ، والحمد لله من القلة بحيث لا يحسب حسابهم مؤمن ، ولا يفتون فى أعضاء المؤمنين ، لأن نور الله وظهور شواهده أقوى مما يأفكون ، وإنهم مع ذلك لأنزل إدراكاً ، وأقل فهماً لحقيقة الوجود الكبرى ، وجود العالم على بنظامه الرائع المكين ، ودلالته الكاملة على وجود الله ، لقد عبدوا الأصنام وما وراءها ، وأمّلوا نفعها ، ورجوا مما يكرهون دفعها ، فقد كانوا يؤمنون بالله ، ويعتذرون عن شركهم الباطل بما حكى الله من قولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »[1].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ، ج ٩ ص ١١٠ تحت عنوان (الفرق بين الوثنية فى الجاهلية وبعد الإسلام) من كلام نافع : (ويظن أهل العلم — بكتب الفقه والكلام — الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين ، أنهم يعبدون الأصنام وغيرها من المخلوقات التى يتبركون بها لذاتها ، وأنهم يعتقدون أنها تضر وتنفع بقدرتها وإرادتها ، والصحيح أنهم يتوسلون بها إلى الخالق ، كما حكى الله تعالى عن مشركى قريش وغيرهم ، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم فى الهند) .

وقال تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[2]. ولقد رد الله فريتهم وجهالتهم

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣ (١) سورة يونس ، الآية ١٨

بقوله لرسوله : « قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » .

إن الوسيلة إلى الله تعالى لن تكون إلا طاعته واتباع أمره سبحانه ، وسنة الله التى قد خلت فى عباده ، أن كل إنسان مجزى بعمله ، مثاب أو معاقب بما كسب ، وأجزل ما أعطى رسول الله صلوات الله عليه عمه العباس وعمته صفية ، وبضعته فاطمة ، أنه قال لهم : (لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم ، من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

كان مشركو قريش يعرفون الله ، كما عرفه الذين من قبلهم ، فسقراط قال لتلاميذه : (ويجب أن تعرفوا أن إلهكم واحد) .

وأرسطو قال : (مما يدل وحدانية الله ، انتظام العالم ، وتناسق حركاته) .

وكان يقول : (ما زلت أشرب ولا أرتوى حتى عرفت الله ، فارتويت من غير شرب) .

قال الإمام ابن قيم الجوزية فى (إغاثة اللهفان) ج ٢ ص ٢٦٦ : كان أفلاطون يقول : (إن للعالم صانعاً ، محدثاً ، أزلياً ، واجباً لذاته ، عالماً بجميع المعلومات) .

وحديث الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم ، والذين اتبعوهم عبر الأجيال ، بإحسان ، يفيض فى ذلك بالحجة والبرهان ، فقد عرفوه .. تعالى ببصائرهم ، كما عرفوه عن طريق النظر إلى أنفسهم وفيما تراءى لهم فى آيات الله المتوافرة عن إيمانهم وعن شمائلهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، مما يثبت الإرادة المدبرة القادرة العليمة الحكيمة ، ويمد الفطرة الخيرة فى أعماق النفس الإنسانية بالهدى والضياء فترى الله .. سبحانه .. متمثلا فى عظيم صنعه ، وبديع خلقه ..

« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه »[1].

والتحـــدى ماضٍ ما بقى فى الكون إنســان واحـد ، وهو مجلجل الصوت ، هادر الصدى ، لا يضائل من تصاعده فى ذلك جدل الذين يجادلون فى الحق بعد ما تبين ، ويمارون فى الله وآياته ، على غير بينة ، وبلا دليل ..

ولقد ترفق النبى صلوات الله عليه بقريش ، وهو يهديها إلى ربها سبحانه ، وقال لهم : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً .. وحاشاه ، ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، ووالله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم جميعاً) ، ولقد كذبه جهرة عمه أبو لهب وقال له ما رده الله عليه :

« تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب » . السورة ..

وأرسل القرآن الكريم بيناته وآياته على شرك المشركين ، شاخذاً فى ذلك وسائل العلم والمعرفة والإدراك ، وهو يقلب أبصارهم فى أنفسهم ، مم خلقوا ؟ وماذا يأكلون ؟ وكيف ينتهون من ليل ينامون فيه ؟ إلى نهار ينشط كل فى فرصته لإبلاغ الحياة كمالها الممكن ؟ ثم وهو يغلغل أنظارهم فى ملكوت السموات والأرض لاستجلاء ما وراء القسم بهذه العوالم العلوية والسفلية فى أسرار سيعين على ظهورها تعاقب الزمان وطلب الإنسان .

وكان لسير الأولين وقصص السابقين منازل فى كتاب الله لتقوم بها الحجة على الذين لم يوقظهم من غفلاتهم قرع الأحداث ولا ما خلا من مثلات المكذبين الضالين ، وكان الرسول صلوات الله عليه يمنحهم

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١١

فى ذلك ما لابد للداعى منه من سعة صدر ومزيد صبر وصدق إدراك وطول أناة ، حتى يجمعهم الله على وحدانية ، ويخرجهم من جور الأديان إلى عدل الإسلام ، كما قال ربعى لرستم قائد جيش الفرس .

قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون »[1] .

وقال : « فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب »[2] .

وقال : « فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم »[3] .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت »[4] .

« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »[5] .

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون * قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون * قل هل من شركائكم من يهدى

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٧ .

(٢) سورة الطارق ، الآيات ٥ — ٧ .
(٣) سورة عبس ، الآيات ٢٤ — ٣٢

(٤) سورة الغاشية ، الآيات ٧ — ١٠
(٥) سورة الزخرف ، الآية ٩

إلى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون »[1].

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[2].

أيكون عاقلا من لا يسارع مع هذا الحشد الفائق من الحجج البينة إلى وحدانية الله وطاعته ؟

أيقولون بعد ذلك ، إن الصدفة هى صانعة كل هذا الانسجام ، وتلك الدقة ، وذلك الإحكام فى الأنفس والآفاق ؟

يقول الأستاذ فريد وجدى : (إذا كان هذا الوجود المدهش ، والإبداع الذى حير الفكر ، وبهر البصائر والأبصار ، نتيجة أعمال الصدفة ، فأى عمل بعد هذا نستطيع أن ننسبه للحكمة !!؟) ، (إنا لنشاهد بأعيننا أن أقل الناس عقلا وأكثرهم تشبثاً بالخيال ، وفى مقدمتهم القائلون بنظرية (الصدفة) لو قلت له : إن هذا القلم برى بالصدفة ، شن عليك غارة شعواء ، وربما اتهمك بالجنون ، وله الحق فى ذلك ، لأن الحس ذاته يشهد بفساد ذلك الزعم وبطلانه ، ولكن من العجيب أن ذلك المتطرف الذى انفعل واتهم مخاطبه بالخبل العقلى ، لنسبته انبراء القلم (للصدفة) نراه إذا تكلم عن هذا الوجود وإبداعه وعجائبه ومدهشاته لا يخجل ولا ينفعل من نسبته (للصدفة والاتفاق) ، مع أن الفرق بين انبراء القلم وخلق الكون لا يقدر بوجه من الوجوه ...) إلى آخر ما قال رحمه الله فى (الحديقة الفكرية) .

---

(١) سورة يونس ، الآيات ٣١ — ٣٥ (٢) سورة القصص ، الآيات ٧١ — ٧٣

إن من القوم من يرد فى (عصر النور) خلق ما كان وما سيكون إلى الطبيعة ، فما هى الطبيعة يا ترى ؟!

لقد قلت فى كتابى (قبس من الإسلام)[1] :

(إنهم يريدون أن يروا الله كما يرون بعض المخلوقات ، كى يؤمنوا عن يقين ، وفاتهم أنهم ما يزالون يجهلون الجوانب الكثيرة من أنفسهم ، ومما حولهم ، وأن أصدق القائلين يقول عن نفسه : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[2].

أورد الإمام السيوطى فى (الإتحافات السنية من الأحاديث القدسية) قول الله تعالى : (ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) .

وصدق الله العظيم : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »[3].

فكيف يريدون أن يروه سبحانه ، وسبيلهم — لو أرادوا — كونه العجيب ، وخلقه البديع ، هذا الخلق المتناسق المنتظم فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وسائر ما أبدع — سبحانه — فى السموات والأرض ..

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير »[4].

---

(١) أصدرته دار النشر للجامعيين فى بيروت عام ١٩٦١ م .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ (٣) سورة الشورى ، الآية ١١

(٤) سورة الملك ، الآيات ١ — ٣

وكيف يفهم هـؤلاء أن تكون الطبيعة المخلوقة التى لا تبصر ولا تعقل ، هى خالقة الإنسان المبصر المتكلم المدبر ؟ وفاقد الشىء لا يعطيه !

ولقد سألت قبلا : ما هى الطبيعة يا ترى ؟

أليست أثراً لظواهر الكون ، وتفاعل المخلوقات ، من أفلاك وكواكب ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وما وراء ذلك ؟ أفيكون الأثر أصلا للمؤثر ، وموجداً له ؟

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[1].

جاء فى تفسير (المنار ، ج ٢) بعد تفسير هذه الآيات (ص ٦٣) : « لآيات لقوم يعقلون » فإنهم هم الذين ينظرون فى أسبابها ، ويدركون حكمها وأسرارها ، ويميزون بين منافعها ومضارها ، ويستدلون بما فيها من الإتقان والإحكام ، والسنن التى قام بها النظام ، على قدرة مبدعها وحكمته ، وفضله ورحمته ، وعلى استحقاقه للعبادة دون غيره من بريته وبقدر ارتقاء العقل فى العلم والعرفان ، يكمن التوحيد فى الإيمان ، وإنما يشرك بالله أقل الناس عقلا ، وأكثرهم جهلا .

والشرك الذى ينهى الله عنه ، يأخذ اليوم بين الملاحدة لوناً جديدة ما كان يعرفه عبدة الأصنام الذين نعى الله عليهم عملهم بمثل قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون *

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ١٦٣ — ١٦٤

وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[١].

إنه يأخذ لون الفناء فى الآخرين ، واعتقاد أنهم ينفعون ويضرون ، والله — وحده — بيده ملكوت كل شىء يعطى ويمنع ، ويضع ، ويرفع ، ويحيى ويميت .

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير »[٢].

فهل بقى بعد ذلك شىء يستعبد به الناس بعضهم بعضاً ، إلا الجهل والغفلة عن الكرامة التى وهبها الله ابن آدم)[٣].

إن كل ما فى الكون يدل بداهة على الله ، فالجاهلى رأى البعرة تدل على البعير وآثار القدم تدل على المسير ، (أفلا تدل السموات والأرض وما فيهن على وجود اللطيف الخبير) ؟!

قد كان محمد صلوات الله وسلامه عليه يحب أن يسمع من أصحابه حيناً بعد حين خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، فلقد كانت إرهاصاً لآيات الله التى لفت إليها القرآن الكريم ألباب أولى الألباب لتوحيده ، وكانت نوراً من أنوار أطلقها الله بين يدى رسالته الخاتمة .. ومنها :

(إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ، ليل داج ، ونهار ساج ، وأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا ، يقسم قس قسماً حقاً لا حنث فيه ، أن لله ديناً هو أرضى له من دينكم

---

(١) سورة الزخرف ، الآيتان ٢٢ و ٢٣ (٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٦

(٣) قبسات من « قبس من الإسلام » ، صفحات ٦٤ و ٦٥ و ٦٦

الذى أنتم عليه ، ونبياً قد حان حينه ، وأظلكم أوانه وأدرككم إبانه ، فطوبى لمن أدركه فآمن به وصدقه) ، ثم أنشد شعراً سائراً ..

كل ما فى الكون ، علواً وسفلا ، يمضى فى طريقه ، وفق سنن إلهى مرسوم ، لا يضل سبيله ، ولا ينحرف عنه قيد أنملة ، يتنفس الصبح .. منذ كانت الحياة وإلى اليوم .. بدون توقف ولا تخلف ، وتطلع الشمس اليوم ، وفى كل يوم يأتى ، ويتسع النهار ، ويعقبه الضحى ، وتكون الظهيرة ، فالأصيل ، ثم يلف الشمس نقاب الغروب ، ويغشى الليل الحياة ، ويلتمع النجم ، ويسطع القمر ، وتزخر البحار ، وتجرى الأنهار ، والبذرة التى يودعها الإنسان بيده أطواء الأرض ، تضرب برأسها الغض الطرى التربة ، وهى نبتة ناعمة ، ترعاها عين الله ، ثم تكون شجرة تمنح الخير ، أو عوداً يعطى الثمر ، بمقتضى ما ركب الله فيها من قوة ونعمة .

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[1].

قال الإمام القرطبى فى تفسيره « متجاورات » : أى قرى متدانيات ، ترابها واحد ، وماؤها واحد ، وفيها زروع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثمار والثمرة ، فيكون البعض حلواً ، والبعض حامضاً ، والغصن الواحد من الشجرة ، قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر ، واللون والطعم ، وإن انبسطت الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد باد فى هذا أدل دليل على وحدانيته ، وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضل عن معرفته ، فإنه نبه — سبحانه — بقوله : « يسقى بماء واحد »

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٤

على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع ، إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف) .

(وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البقاع ، فمن تربة عذبة ، ومن تربة سبخة ، مع تجاورهما ، وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته ، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً) .

ثم قال : (ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه ، لا من صانع ، وادعوا ذلك فى الثمار الخارجة من الأشجار ، وقد أقروا بحدوثها ، وأنكروا محدثها ، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة : بحدوث الثمار ، لا عن صانع ، وأثبتوا للأعراض فاعلا ، والدليل على أن الحادث لابد له من محدث ، أنه يحدث فى وقت ويحدث ما هو من جنسه فى وقت آخر ، فلو كان حدوثه فى وقته لاختصاصه به لوجب أن يحدث فى وقته كل ما هو من جنسه ، وإذا بطل اختصاصه بوقته ، صح أن اختصاصه به لأجل مخصوص خصصه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه فى وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده) ج ٩ ص ٢٨١ و ٢٨٢

ولقد يطلب الملاحدة مزيداً من الأدلة على وجود الله ، فليأخذوه هذه المرة من أينشتاين ، يقول : (مثلنا إزاء العالم ، مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئاً ، فلما أخذ فى مطالعته ، وتدرج من ذلك لدرسه ، وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى ، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئاً غامضاً لا يصل لكنهه ، هذا الشىء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه ، هو عقل مؤلفه ، فإذا ترقى به التفكير ، عرف أن هذه الآثار نتيجة لفعل إنسان عبقرى أبدعه .. كذلك نحن إزاء

العالم ، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئاً غامضاً ، لا نصل إلى إدراكه ، وهذا الشيء هو الله) .

أجل هو (الله) يبدو لمن يسمعون ويبصرون وينصفون من خلال كل شيء ، وإن كان لمسة وتر ، أو حكة حجر ، أو هبة ريح ، وإن كان شيئاً صغيراً يكاد يرى بعين أو يدرك بما وراء ذلك من منافذ الحس والإدراك ، وهي جميعاً تقدم الدليل على وجود الخالق سبحانه .

أتريد كلمة ثانية من أينشتاين ؟ تكشف مزيداً من تطلعه على الكون والحياة ؟ .. قال : (إن أروع شعور يملأ نفس الإنسان ، وهو يتطلع إلى السماء ، أن هناك سراً هائلا وراء كل شيء ، إن هذا السر هو الصدر الحقيقي لكل عالم ، وكل إنسان لم يستشعر جلال هذا السر ، هو إنسان أعمى) .

وصدق الرجل .. لكن العمى الذى عناه ، إنما هو شيء أبعد من فقد البصر ، على ما فى فقد البصر من شدة وحرمان ، إنه ذلك الذى قال فيه الله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[1].

وياويح إنسان انتكس فيه وعاء الإيمان ، والمضغة التى يصلح بصلاحها الجسد ، فإذا فسدت اعتل وفسد ، يقول الصادق صلوات الله عليه : (ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب) .

وندع أينشتاين هنيهة لنطل مع (نيوتن) على ضآلة العقل الإنسانى ، وجلالة الكون وهو يقول : (وجدت الطبيعة بحراً زاخراً لا نهاية

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٦

لعجائبه ، وكما اكتشفنا شيئاً من مكنوناتها ، اغتبطت بها ، ولكنى أعترف بأنى لست أمام هذا الكون اللانهائى ، ونواميسه العالية ، إلا كالطفل الذى يلعب على شاطئ البحر الخضم ، وكلما وجد ودعة أو صدفة لماعة أخذها وفرح بها) .

فهل يرجع الملاحدة نظرهم كرات ، فيما فى أيديهم من وسائل المعرفة ، وثمرات بحوثهم الكافرة بالله ، فقد يجدون ثروتهم العقليــة والمادية حجراً غير لماع ؟!

وقد يكون من المفيد أن أعرض ما يثرى البراهين بما تمدنى به مذكراتى ، ففى قطوف من آخر ساعة فى ٢١ / ٢ / ١٩٦٢ علق فيها الأستاذ محمد التابعى ، على رجوع علماء روسيا إلى الاعتراف بوجود الله أينشتاين مفجر الذرة ، وأكبر علماء العصر الحديث ، سأله أميركى ، هل يؤمن بما جاء فى الكتب المقدسة عن (وجود الله) ؟!

فقال : (أنا أؤمن كل الإيمان بوجود خالق لهذا الكون ، وكلما تعمقت فى دراساتى وأبحاثى ، ازداد إيمانى عمقاً ورسوخاً) .

وكان أينشتاين يهودياً ، مثل جميع العلماء والخبراء الذين اشتركوا فى التغييرات الذرية والهيدروجينية التى أجرتها أميركا فى جزر بيكينى فى المحيط الهادى ، والذين اشتركوا من قبل فى صنعها ، وقد سئلوا جميعاً فلم يوجد بينهم ملحد واحد ، جميعهم يؤمنون بوجود إله واحد .

وذكر التابعى كيف برهن (أكريس موريسون) فى مقدمة كتابه (العلم يدعو إلى الإيمان) على وجود الله ، وتمنى التابعى أن يدرس هذا الكتاب فى الجامعات ، لمقاومة حركة الإلحاد التى تطل من كتابات بعض الزملاء المفتونين بما قرأوا لهيكسلى وأمثاله من الملحدين) .

فهل بلغ هـذا التمنى المسئولين ؟ قبل أن نقول للرجل الذى أفضى إلى ربه :

لقـــد أسمعت لو ناديت حيــاً ولكن لا حيــاة لمن تنادى ! !

وكانت جريدة (الأخبار) فى عدد ٢٩١٥ بتاريخ ١ / ٢ / ١٩٦٢ قد نشرت تحت عنوان : (العلماء السوفييت يعودون إلى الدين) ، فقالت : (أخذت الروح الدينية تسرى فى أوساط العلماء السوفييت) .

نشرت جريدة نيويورك تايمز مقالا لمراسلها فى موسكو قالت فيه : (إن عدداً من علماء السوفييت قد استخلصوا من أبحاثهم العلمية فكرة روحية عن الكون ، وصاروا يعتقدون بوجود قوة تتجاوز الوظائف العقلية للبشر) .

والبقية تأتى يا من تتشبثون بآراء تخلى أصحابها عنها ، وعادوا ، أو عاد بعضهم ، ولو بمجرد القول ، إلى شيء من الحق ، وصدق الله العظيم : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون »[١].

وإذا كان الرائد الفضائى — جاجارين — (لم يجد الله فى الفضاء) فالعيب فى جهازه النفسى والعقلى .. لا ريب .

« تبـارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعـل فيهـا سراجاً وقمراً منيراً »[٢].

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »[٣].

---

(١) سورة النمـل ، الآية ٩٣ (٢) سورة الفرقان ، الآية ٦١

(٣) سورة يس ، الآيات ٣٧ — ٤٠

أما الله جل وعلا .. فهو كما قيل :

وفي كل شيء لـه آيـة   تـدل على أنـه الواحـد

سأل أحد الصحفيين الرائد الكونى الأمريكى (جون جلين) : هل تعتقد بوجود الله فى الفضاء ؟ فأجاب : (إن الله موجود فى كل مكان ، وليس من العبادة أن نحصر وجود الله فى مكان ما من الكون دون سواه ، وذلك لأن الله أعظم من الكون ، وحيثما توجهنا فهو هناك)[1] ببديع صنعه ومنبع قدرته وحكمته .

وكان (جلين) قد صرح فى خطاب ألقاه أمام الكونجرس الأميركى بعد عودته من رحلته الكونية ، التى دار خلالها حول الأرض فى فبراير عام ١٩٦٢ ، فقال :

(كلما تقدمت قوة يزداد إعجابى بمدى ما نعلم فى أسرار الكون ، بل بالمجالات الهائلة التى لم نتمكن بعد من استكشافها ، أما الآن وقد أخذت معلوماتنا تتسع شيئاً فشيئاً فإنى أرجو أن ينعم الله علينا بأن نستفيد من هذه المعلومات بحكمة ودراية وتبصر) .

وإذا كان الرجل قد مات على ما أسلف من خير وشر ، فعسى أن يتحقق رجاؤه فى أولئك الذين ما يزالون يترنحون بسكر ما يزعمون من مكاسب المعرفة دون المعرفة الحقيقية ! !

ومن نفيس ما قرأت ، وإن فيه لمقنعاً للمنصفين ، قول الأستاذ عارف العارف العالم المؤرخ الفلسطينى فى رسالة (الأزمة الكبرى) :

(يعجز العقل وقد يبقى عاجزاً إلى الأبد عن إدراك كنه الخالق وسر الوجود) .

---

(١) قال الله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ، سورة البقرة ، الآية ١١٥

من حق الطائر يبصر الصواريخ عبر الفضاء أو يجهل ما وراءها ، ولكن ليس من حقه أن ينكر العلماء الذين أطلقوها ! !

(إن الجهل ليس علماً سلبياً ، إنه (لا أعلم) ، (لا أدرى) ، كثير من الأحداث تجرى بين سمع المرء وبصره ، لا توصل إلى قلبه اليقين المطمئن ، فلا يدعين العقل ما لا يملك ، بل له أن يتخذ مقال (بيستورن) شعاراً له ، فى فهم ما وراء الطبيعة ، ليلاحظ كما لاحظ ذلك العالم الكبير أن قليلا من العلم يبعد الإنسان عن الله ، وكثيراً من العلم يقربه من الله) .

إن الله عز وجل يلوى الأعناق إليه بشواهد جلاله ومشاهد كماله ، وإذا غلب الغرور فى بكرة العمر على أقوام ، فلابد أن ينتهوا إلى الإيمان بالله عز وجل آخر العمر ، ولقد غرّت (فولتير) نفسه حيناً ثم قال : (لابد من أن نخلق الإله ، حتى ولو لم يكن موجوداً) .

والعبارة يدعو ظاهرها إلى شيء من الانقباض والامتعاض ، لكنها لا ريب تغلف ضرورة الإيمان ، وتجعل قضية الدين من أبده البدائه .

وأحسب أن (وجود الله) و(وحدانيته) لم يعودا موضع ارتباب بعد هذا البيان الإلهى الوضىء المضىء ، وهذه الأدلة العقلية الباهرة المتوافرة ، لكنى أود أن نرتوى من نبع الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد قال فى بعض وصاياه لولده : (اعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد ، لا يضاده فى ملكه أحد) !

ويستأصل الإمام ابن القيم فضول عقم التفكير عند أقوام ، بفهمه السديد فى قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذن

لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »[1].

قال : (تأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز البين ، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فاعلا ، يوصل إلى عابديه النفع ، ويدفع عنهم الضر ، فلو كان معه — سبحانه — إله ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره ، والتفرد بالألوهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك ، انفرد بخلقه ، وذهب به كما يذهب ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم ، إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر ، والعلو عليه ، فلا بدّ من أمور ثلاثة ..

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد ، يتصرف فيهم ، ولا يتصرفون فيه ، ويمتنع عن حكمهم ، ولا يمتنعون عن حكمه فيكون — وحده — الإله الحق ، وهم العبيد المربوبون المقهورون) .

(وانتظام أمر العالم العلوى والسفلى وارتباط بعضه ببعض ، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد ، من أول دليل على أن مدبره واحد ، لا إله غيره ، كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد ، لا رب غيره) .

(فذلك تمانع فى الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع فى الغاية والألوهية ، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان ، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان)[2].

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩١

(٢) صواعق مرسلة ، ج ١ ، ص ٩٩ ، لابن قيم الجوزية .

إن أدلة وجود الله تبدو فى كل اتجاهات الحياة — قال ابن الجوزى فى كتابه (صيد الخاطر) :

(نظرت فى الأدلة على الحق سبحانه وتعالى فوجدتها أكثر من الرمل ، ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفى حالا يرضاه الله عز وجل ، فيظهره الله تعالى ولو بعد حين ، وينطق الألسنة به ، وإن لم يشاهده الناس ، وربما أوقع صاحبه فى آفة يفضحه بها بين الخلق ، فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب ، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازى على الزلل ، ولا ينفع من قدره ولا قدرته حجاب ولا استتار ولا يضيع لديه عمل ..

كذلك يخفى الإنسان الطاعة ، فتظهر عليه ، ويتحدث الناس بها ، وبأكثر منها ، حتى أنهم لا يعرفون له ذنباً ، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن ، ليعلم أن هنالك رباً لا يضيع عمل عامل ..

وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه أو تأباه ، وتذمه أو تمدحه ، وربما لم يتحقق ما بينه دين الله تعالى ، فإنه يكفيه كل همّ ، ويدفع عنه كل شر .. وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون الحق ، إلا انعكس مقصوده ، وعاد حامده ذاماً) .

وأود أن يجمع الله القلوب على الهدى ، وأن لا يفارق بعضنا سواء السبيل ، ذهاباً مع العناد والتقليد ودعوى التجديد ، بغير بينة ولادليل ، وأن نقول مع الأعرابى — فيما روى أبو بكر بن دريد ، صاحب المقصورة — أنه حدثه عبد الرحمن بن عبد الله ، عن عمر بن عبد الملك ابن قريب قال : سمعت أعرابياً يدعو الله ، وهو يقول :

(هربت إليك بنفس ، يا ملجأ الهاربين ، بأثقال الذنوب أحملها على ظهرى ، لا أجد شافعاً إليك إلا معرفتى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون ، وأمل فيما لديه الراغبون ، يا من فتق العقول بمعرفته ، وأطلق الألسن بحمده ، وجعل ما امتن به من ذلك على خلقه ، كفاءً لتأدية حقه ، لا تجعل للهوى على عقلى سبيلا ، ولا للباطل على عملى دليلا) .

وليكن مسك الختام قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : (سبحانك متى غبت حتى تحتاج فى وجودك إلى دليل) .

أمام كتاب الكون المفتوح

إن الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قد أسقط أعـذار الذين لم يذهبوا بمقتضى الحس فيهم إلى معرفة الله والإيمان به ، وهو سبحانه ينحى باللائمة على أقوام لا يطالعون كتاب الكون المفتوح ، ولا تعظهم عظات الحياة الناطقة ، ولا تذكرهم بالله آياته المنبثة فى الأنفس والآفاق ، لا يحجبها عن الأعين والآذان والحواس كلهـا حجاب .. قال تعالى : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »[1] .

وحط الله عن درجة الإنسانية خلقاً عطلوا فى أنفسهم عقولهم وهم بأعمالها وتحريكها حيث أراد الله أشرف مخلوقاته ، فقال تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[2] .

وفى تفسير هـذه الآية من (تفسير المنـار) ج ٩ ص ١٤٩ : (يطلق القلب بمعنى العقل ، وبمعنى الوجدان الروحى ، الذى يعبر عنه فى هذا العصر بالضمير ، وهو تعبير صحيح ، واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفى معنى القلب اللب ، وهو جوهر الشىء ويكثر فى التنزيل ، ومنه النهية وجمعها (نهى) وفيه قوله تعالى فى سورة طه ، الآية ٢٨ : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، ومن استعماله فى معنى العقل قوله تعالى فى سورة الحج ، الآية ٤٦ : « أفلم يسيروا فى الأرض

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٥ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩

فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

وتابع تفسير المنار : (والآية بمعنى التى تفسرها ، وحذف منها — أو أعين يبصرون بها ، استغناء عنه بدلالة ما بعده عليه ، والآيات المبصرة بالأعين فى السياحة فى الأرض أكثر من المسموعة) .

وفى البداءة بالقلوب الفاقهة العاقلة عن الشرود فى أودية الهوى فى الآيتين دلالة أن الفهم وإدراك الأمور على حقائقها هما أمارة سلامة العقل ، واستقامة القلب ، وأن آفة من الآفات لم تصب هذه النافذة التى تطل بنا على الصواب دائماً ، وما يزيد القلب الذى لا يخشع لجلال الله وجمال الحق وسلطان الخير عن هذه المضغة من اللحم ، كما لا تتجاوز الأبصار والآذان التى تقاصرت بذويها عن الارتفاع إلى مستوى الادكار والاستبصار عن هاتين الشحمتين الحقيقيتين اللتين لا تزنان من الأجسام شيئاً ذا بال .

وللسيد رشيد كلام فى الآية أود أن يراجعه القارئ ، وإن كان فيما أوردت غنية وكفاية .

ولا يفوتنى أن أنقل من الجزء المذكور ص ٤٢٦ هذه الجملة :

(ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ومعنى الجملتين يفهم إجمالا مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلا ، أى ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله فى خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى فى خلقه ، فيهتدون بكل منها إلى ما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ؛ وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر فى آياته تعالى فى الأنفس والآفاق ، وفى تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فإن الآذان قد خلقت

للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع ، لا من القرآن فقط ، كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كماله بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منهما فيما خلق له .. قال تعالى فى آخر سورة السجدة : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون * أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » . فهذان مثلان للآيات البصرية والسمعية وأمثالها كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ..

ويا ويح الإنسان يغفل عن موجبات تكريم الله له ، ويعطل فى نفسه أسمى ما منحه ربه من قوى وطاقات ، فلا يقف تعالى فى الزراية عليهم عند حد إعلان أصدق القائلين أن هؤلاء خلقوا يوم خلقوا ليكونوا وقوداً لجهنم ، ولكنه سبحانه ، حكم عليهم ، وهو العليم بمن خلق ، فقال : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » ، وأبرز الله جريرتهم كلها فقال : « أولئك هم الغافلون » ، ويوم دعا النبى صلوات الله عليه بنى عبد الدار إلى الإسلام ، فقالوا : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، لا نسمعه ولا نجيبه ، نزل قول الله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[1].

ولقد استجاب أوائلنا لله تعالى حين ناداهم أن ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وكانوا يستعينون على ذلك كله بالله ، وبما أوجب من ذكر وطاعة وحسن تبصر ، فهداهم ذلك النظر من ضلالة ،

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات ٢٢ — ٢٣

وعلمهم من جهالة ، وصدقهم الله وعده « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »[1].

فإذا نادتهم آية من آيات القرآن الكريم أذنوا لها ، وإذا أمرتهم بخير ، كانوا أسرع إليه من رجع الصدى ، وإذا نهتهم عن شر اجتنبوه وانخلعوا عنه راضين ، غير مترخصين فى شىء منه !! ، وإذا قصت عليهم شيئاً من سير الأولين ، وخبر الغابرين « كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، وتثبيت لقلوب المؤمنين ، وعزاء من بلاء يواجه ، أو شدة تعرض ، وكان فصل الخطاب الذى ينهى كل جدل ولجاج يولع بهما لحساب الباطل كثيرون ..

وأين نحن من سلفنا هؤلاء ؟!

إن الإسلام الذى بهر ألبابهم ، وأنار قلوبهم ، هو الذى ننتسب والحمد لله إليه ، وإن تراث محمد صلوات الله عليه ، هو الذى نجتمع وأوائلنا عليه ، وما تزال الأبصار والآذان والألسنة بمكانها منا ، تؤدى أدوارها على هدى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ..

قال تعالى حاكياً حوار فرعون لموسى وهارون عليهما السلام : « قال فمن ربكما يا موسى ؟ * قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »[2].

أورد (التفسير المنتخب) الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى ذيل تفسير هذه الآية : (أودع الله فى كل شىء صفاته الخاصة التى تؤهله لأداء وظيفته التى خلق لها فى هذه الحياة ، كما أنها سبيل هداية الإنسان) .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٣ (٢) سورة طـه ، الآيتان ٤٩ و ٥٠

وما تزال عقولنا تعى ما ينفع وما يضر ، وتدرك ما يسوء وما يسر ، فكيف تنكبنا سبيل الإسلام ، وفيه عز الدنيا وأمن الآخرة ؟ وكيف لا تكون لنا أسوة حسنة بالذين بنوا فطال بناؤهم ، وأقاموا الأمصار ، وتركوا فى كل مجالات الخير أبرك الآثار ؟ وكيف يسبقنا أقــوام إلى ارتياد الفضاء واكتشاف المجهول ، وإضافة الطارف من المعارف التى تثرى الفكر البشرى ، ووجوه العمران ومنافذ الحياة التى أراد الله أن يسيطر عليها الإنسان ، ويستخرج ذخائرها وخيراتها لتسعده وتتيح فرص الرفاهية لمن يعيشون من حوله ، كما يفعل ناس عن يمين وشمال بباعث من حب الحياة ، ودون أن يكون لهم من الوصايا الوضيئة ، والتعاليم المبصرة بعض الذى عندنا فى كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه ، ومواريث سلفنا رضى الله عنهم ؟!

وما أريد أن أعيد قول (جاجارين) حين عتا ، وظن أنه يستطيع بشىء من الحماقة أن يطمس مشاهــد وجــود الله ، ويوهن شواهــد وحدانيته التى تبدت له لا ريب فى رحلته الفضائية .. فذلك قد أسلفته لك مع كلام (جون جلين) الرائد الأميركى الذى رأى فقال ونصح ولم يجامل فى الحق ولا قلامة ظفر ..

والفريق بين الرجلين هو الفرق بين عقل تحجبه عن النور ستور ، كالستار الحديدى ، وبين عقل سليم منطلق فى تأملاته وتطلعاته على الكون وعلى الحياة التى ينبغى أن يصح منها العزم على اكتناه أسرارها بمدد من هدى الله ونوره « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »[1] .. وفى إتاحة فرص العلم للجميع ، وإفساح مجالات البحث العلمى فى كثير من أقطارنا ، وصل لما انقطع من عهود سبق الأمة التى كان أول

---

(١) سورة النور ، الآية ٤٠ .

آيات كتابها نزولا على المصطفى صلوات الله عليه « اقرأ » ، وأمل كبير فى غد نستكمل فيه محاولات روادنا الأوائل : عباس بن فرناس ، وجابر بن حيان ، والرازى وابن سينا وغيرهم من العلماء الذين كانت علومهم حتى القرن الثالث الهجرى مصدر إشعاع ، ومنطلق ابتكار واختراع فى أوربا ، حين عقلنا نحن ما عندنا فى كتاب الله وسنة مصطفاه فى إعلاء قدر العقل ، والتنويه بأولى الألباب وجلال رأيهم فى الدين والدنيا ، والإشادة بالعلم ، والعلماء الذين باهى الله بشهادتهم بوحدانيته تعالى ..

ومن عجب أن الرياح تثور ، وتبرق السماء وترعد ، وينهل المطر غزيراً كأفواه القرب ، وهى ظواهر تحدث الآن ، كما حدثت منذ كان الإنسان ، وآيات إلهية دالة على أنه — سبحانه — القاهر فوق عباده ، وأن بيده ما فى السموات والأرض وأن علمه محيط ، وقدره ماض ! !

« ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[1].

يقول الخبراء فى (التفسير المنتخب) الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى التعليق على هذه الآية : (تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم ، فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها وما عرف علمياً فى العصر الأخير من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات يتألف عدد منها فى مجموعات هى السحب الركامية ، أى

---

(١) سورة النور ، الآيتان ٤٣ و ٤٤

السحب التي تنمو في الاتجاه الرأسي وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلو متراً فتبدو كالجبال الشامخة .

وكان الخبراء قد أوردوا قبل ذلك بقليل قولهم : (لا يعرف التشابه بين السحب والجبال إلا من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب ، فيراها من فوقه كأنها الجبال والآكام ، وإذا لم تكن تلك الطائرات في عصر النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذلك يكون دليلا على كون هذا الكلام من عند الله الذي يعلم ما علا ، وما انخفض) .

فهل تومض أمام هذه الظواهر في قلوبنا عبرة ؟ أو تنطلق ألسنتنا بذكر ؟ أو تنفرج شفاهنا عن تسبيح مالك الملك ، خالق الخلق ، بديع السموات والأرض ؟

قال تعالى : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »[1].

وفي تفسير هذه الآية الجامعة لحجة الله على جليل أسراره في كونه ومخلوقاته ، يختم تفسير المنار (ج ٢ ص ٦٤) بهذه الكلمات :

(وقد يزعم بعض الذين يعادون علم الكون باسم الدين أن النظر في ظواهر هذه الأشياء كان للاستدلال بها ومعرفة آيات صانعها وحكمته ورحمته ، فمثلهم كمثل من يكتفي من الكتاب برؤية غلافه الظاهر ، وشكله ، من غير معرفة ما أودعه من العلم والحكمة .. نعم إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصح عن وجود الله وكماله ، وجلاله

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٤

وجماله ، وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[١] ، وبقوله : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم »[٢].

فكلمات الله فى التكوين باعتبار آثارها ومصداقها هى أحد المخلوقات والمبدعات الإلهية ، فإنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال ، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون ، وللعلم معادون ، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأقيسة المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية ، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهماً ، لكان الله تعالى استدل فى كتابه بالأدلة النظرية الفكرية ، وذكر الدور والتسلسل وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية ، ولم يستدل بالسماء والأرض والليل والنهار والفلك والمطر وتأثيره فى الحياة ، وغير ذلك من المخلوقات التى أرشدنا القرآن إلى النظر فيها ، واستخرج الدلائل والعبر منها) .

ثم قال : (ألا إن لله كتابين ، كتاباً مخلوقاً وهو الكون ، وكتاباً منزلا وهو القرآن ، وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذلك ، بما أُوتينا من العقل ، فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون) . اهـ .

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ خواتيم سورة آل عمران ، الآيات ١٩٠ وما بعدها : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ... » الآيات ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول بعدها : (ويل لمن قرأها ولم يتدبرها) .

---

(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ (٣) سورة لقمان ، الآية ٢٧

والآيات وأمثالها فى كتاب الله كقوله سبحانه : « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »[١].

مجال استبصار ، وينابيع تأمل واعتبار ، والله تعالى يوجب بقوله : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[٢].

أكثر من مجرد النظر ، وإذا كان يسترعى أنظار أقوام زرقة السماء ، وسطوع شمسها ، والتماع نجمها ، ويقنعهم من الأرض الإحاطة باستواء مسالكها ، وخضرة زروعها ، وتفجر ينابيعها ، وارتفاع جبالها ، وتباعد أطرافها ، فإن وراء ذلك من العلم منادح وجوانب لا تشق على الإنسان إذا أعمل عقله ، وتمثل أن الله سخر له وللجنس البشرى « ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »[٣].

— والعلم التجريبى القائم على المشاهدة المحسوسة يزيد الذين آمنوا إيماناً ، ويثمر فى أنفس الكافرين بالله عرفاناً ، إذا سلموا من أسر مواريثهم الباطلة ، وشمروا لطلب الحق ، فلم يقولوا ما قال أوائلهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[٤].

— وقد سيطر الغرور على بعض الناس فى مراحل من الزمان ، كما يسيطر الآن على آخرين يبلغون بالبحث درجة من العلم لا تمثل من علم الله — مع التجوز الكبير — إلا ما تمثله المحظة من الدهر ، أو القطرة

---

(١) سورة الجاثية ، الآيات ٢ — ٦ (٢) سورة يونس ، الآية ١٠١
(٣) سورة الجاثية ، الآية ١٣ (٤) سورة الزخرف ، الآية ٢٣

من البحر .. قال تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[١].

— وحاشا أن يفهم عاقل أن الله يثبط بقوله الكريم همم الناظرين ، أو يضعف عزائم العاملين ، ولكنه — سبحانه — يضاعف بكلماته الهادية من توفرهم على أن يشيدوا ويزيدوا من فرص ازدهار الحياة ورخاء أهلها ما يكون عملا صالحاً ممن استعمرهم الله أرضه ، وورثهم مقاليد كونه ، وهو سائلهم عن أنعم يوم يجزى كل امرئ بعمله خيراً بخير ، وشراً بشر ، فلا يظلم مثقال ذرة ..

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[٢].

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ... »[٣].

ومهما أوتى الإنسان من سلطان العلم والحكم فليس بقادر على تسيير الكون وفق هواه ، وأقصى ما يستطيع أن ينتفع بالكون ويعرف بعض ما خفى على الناس طويلا من أسراره ..

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »[٤].

— (ومن كان له شيء وراء هذا فليطلبه) كما كان يقول أبو حفص عمر إذا قرأ هذه الآية ..

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ (٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥

(٣) سورة هود ، الآية ٦١ (٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤

إننا لنهيب بالعقلاء أن يتأملوا كتاب الكون المفتوح ، وأن يستلهموا آياته معطياتها ، وأن يكون نظرهم بناء مثمراً (وأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع) كما كان يدعو سيدنا رسول الله صلوات الله عليه .

* * *

تثور الرياح ، وتبرق السماء وترعد ، وتجود بمطر كأفواه القرب ، فهل أملينا لعقولنا وقلوبنا فى هذه الظواهر الدالة على قدرة الله وقوته وعلمه ورحمته ؟!

لقد كانت كل حركة من هذه الحركات الكونية تثير نفس النبى وتحرك فكره ، وترسل إلى الله سبحانه ضراعته وشكره ، فإذا عصفت الرياح قال : (اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به) .

ويقول لأصحابه : (الريح من روح الله تعالى ، تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها) . وروح الله : رحمته .

ويقول : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .

والنبى صلوات الله عليه ينفذ بهذا إلى أغوار حكمة الله الذى ذكر الرياح مجموعة — أكثر ما ذكرها — فى مجال الخير والإنعام ، وذكر الريح مفردة — أكثر ما ذكرها — فى سياق الغضب والانتقام ، ولم تخالف فى الإفراد غير مرة واحدة ، حيث قال تعالى فى سورة يونس : « وجرين بهم بريح طيبة » .

قال تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى

إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات »[١] .

وقال : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته :: »[٢].

وقال : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين »[٣] .

وقال : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »[٤].

وقال : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »[٥] .

— روى الإمام مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى السحاب تغير وجهه ، وعرف فيه الفزع . قالت : فقلت : يا رسول الله ، إن الناس إذا رأوا السحاب فرحوا واستبشروا ، فما بالك يتغير وجهك ، ويعرف فيه الفزع ؟

قال : يا عائشة ! إنى أخشى أن يكون عذاباً ، إن قوماً حين رأوه قالوا : (هـذا عارض ممطرنا) . قال الله عز وجل : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم »[٦].

ولقد كشف تأمل قول الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح ... » آفاقاً فسيحة من أسرار الله ..

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٧ (٢) سورة الروم ، الآية ٤٦
(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٢ (٤) سورة الذاريات ، الآيتان ٤١ و ٤٢
(٥) سورة القمر ، الآيتان ١٩ و ٢٠ (٦) سورة الأحقاف ، الآيتان ٢٤ و ٢٥

— فقد قرر العلم الحديث أن الرياح عامل هام فى نقل حبوب اللقاح إلى الأعضاء المؤنثة فى النبات ، ليتم بذلك عقد الثمار ، وأنها تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر ، وأن تبخر المياه من سطح الأرض وتجمعه نقطاً نامية داخل السحب هى المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحاب ، إذ تتجمع قطراتها بعضها مع بعض بتأثير البرودة ، وتتكون منها قطرات مائية أكثر فأكثر حتى تسقط نحو الأرض لثقلها .

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون »[1] .

— ولقد لحظ عملية تبخر الماء ونزوله بعد ذلك إلى الأرض غيثاً يحيى العباد والبلاد ، ذلك الشاعر الذى جعل شعره كالمطر ، وجعل ممدوحه كالبحر ، فقال وأحسن :

كالبحر يمطره السحاب ، وماله فضل عليه ، لأنه مائه

— وفى السحاب كما فى سائر المخلوقات تلاقح ، تحتك سحابتان إحداهما كهرباء سالبة ، والأخرى كهرباء موجبة ، فينشأ من ذلك البرق ، وجل الله الذى يقول : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »[2].

ويقول سبحانه : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »[3] .

وحين قال تعالى لرسوله : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين

---

(١) سورة الروم ، الآية ٤٨ (٢) سورة الذاريات ، الآية ٤٩
(٣) سورة يس ، الآية ٣٦

اثنين »[1] لم تكن البشرية تعلم ما كشفه العلم الحديث من أن كل الثمرات ، ذكر وأنثى ، يتم بينهما التلاقح ، فتتوالد الأنواع وتكثر لتسد حاجة الناس « إن الله بالناس لرءوف رحيم »[2].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول : (اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك) رواه الترمذى .

ويقول : (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) رواه الترمذى .

فالله تعالى يقول : « ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال »[3].

أبرقت السماء يوماً وأرعدت ، فقال أحد الصالحين : (اللهم قد أريتنا غضبك ، فأرنا رحمتك) . وفى ملتقط الحكايات للإمام ابن الجوزى :

روى أبو سعيد أن رابعة العدوية وقع فى بستان لها جراد ، فلما جاءت ونظرت إليه ناجت الله قائلة : (إن شئت أطعمه أعداءك ، وإن شئت أطعمه أولياءك ، رزقى عليك) ! قال : فلم يبق فى الحائط جرادة إلا طارت ..

وأذكر أن إحدى الصالحات كان لها زراعة إلى جوار بيتها ، فأمطرت السماء يوماً مطراً حطم زرعها ، فرمقت السماء بنظرة مؤمن راض .. ثم قالت : (افعل ما شئت فإن رزقى عليك) .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٣ (٢) سورة الحج ، الآية ٦٥

(٣) سورة الرعد ، الآية ١٣

والمادة العلمية فى هذه السطور مقتبسة من كلام خبراء « التفسير المنتخب » الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

فما انتهت من كلمتها ، حتى كأنها كانت مع السماء التى أمسكت عن المطر ، على موعد ! !

والإنسان فى شرخ الشباب واستواء الجسم ، يجالد الطبيعة إلى حد كبير ، ويجد أكثر من وسيلة للسلامة من العواصف والأنواء ، ولكنه حين يواجه خريف العمر ، وتتراخى به الحياة ، ترتعش أوصاله ، وتضعف قواه ، ويكون كالربيع بن منيع الذى بلغ من العمر مائة وأربعين سنة فقال :

أصبح منى الشباب مبتكراً ... إن ينأ منى ، فقد مضى عمرا
فارقنا قبل أن نفارقه ... لما قضى جماعنا[1] وطرا

حتى قال :

أصبحت لا أملك السلاح ، ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به ... وحدى، وأخشى الرياح والمطرا

أو كما يقول الآخر :

قد كنت أمشى ولست أعيا ... فصرت أعيا ، ولست أمشى !

وجلت حكمة الله الذى يقول : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير »[2] .

قال الإمام القرطبى فى تفسير الآية : (ذكر استدلالا آخر على قدرته تعالى فى نفس الإنسان ليعتبر ...) .

وفى الماء دروس وعبر .. يقول صحابى جليل : (الماء أهون موجود وأعز مفقود) ، وهى كلمة حق ، فإن الماء يتعذر على امرئ حيناً ، ويكون عدل الحياة ، ولا يغنى غناءه سواه ، ويكثر بيننا

(١) جماعنا : أى اجتماعنا . (٢) سورة الروم ، الآية ٥٤

ويتوفر ، فلا يعرف الناس خطره ، ولا يقدرونه قدره ، حين يسرفون فى استعماله ، ويسارعون إلى إهداره وإهماله ، دون أن ينبت لهم زرعاً أو يدر ضرعاً أو يؤدى فى النظافة نفعاً .. والماء عنصر هام فى الحياة ، وهو من أسرار الوجود الكبرى ، تشتد إليه حاجة الإنسان فى طعامه وشرابه ونظافته وثيابه وسائر تصرفاته ، وإليه حاجة الحيوان والنباتات كلها وكثير من الأعمال والصناعات التى يدفعها فى العمران وازدهار الحياة — قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون »[1].

وقال : « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون »[2].

وقال : « هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[3].

وقال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[4].

قال الإمام القرطبى (ج ١ ص ٢٥٨) عن طاووس بسنده (أن رجلا جاء عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، قال الرجل : مم خلق هؤلاء ؟ قال : لا أدرى ، قال : ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، قال : فأتى الرجل عبد الله

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٣٠ (٢) سورة السجدة ، الآية ٢٧
(٣) سورة النحل ، الآيتان ١٠ و ١١ (٤) سورة النحل ، الآية ١٤

ابن عباس ، فسأله فقال : مم خلق الخلق ؟ قال : من الماء والنور والظلمة والريح والتراب ، فقال الرجل : مم خلق هؤلاء ؟ فتلا ابن عباس : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »[1] فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم) .

قال البيهقى : أراد أن مصدر الجميع منه ، أى من خلقه وإبداعه واختراعه ، خلق الماء أولا ، أو الماء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ، ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لما خلق بعد ، فهو المبدع وهو البارئ ، لا إله غيره ولا خالق سواه ، سبحانه جل وعز . ا هـ .

وقد دخل ابن السماك يوماً على هارون الرشيد ، فوجده يرفع الماء إلى فمه ليشرب ، فقال : ناشدتك الله ، يا أمير المؤمنين ، أن تنتظر قليلا . فلما وضع الماء قال له : أستحلفك بالله تعالى ، لو أنك منعت هذه الشربة من الماء ، فبكم كنت تشتريها ؟

فقال : بنصف ملكى . قال ابن السماك : اشرب هنأك الله ..

فلما شرب ، قال : أستحلفك بالله تعالى ، يا أمير المؤمنين ، لو أنك منعت خروجها من بدنك بعد هذا ، فبكم كنت تستخرجها ؟!

قال : بملكى كله .. فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ملكاً تربو عليه شربة ماء لخليق أن لا يتنافس فيه ! !

والماء الذى هو عنصر حياة العباد ، هو وسيلة اتصال البلاد ، وتبادل كبار المنافع بين جوانب الدنيا ، فهو يكون البحار والأنهار والبحيرات ، حيث تجرى الفلك فيها باسم الله مجريها ومرساها ، وتمخر بإذنه عبابها ، وما زلت أذكر أول يوم رأيت فيه كبريات البواخر تجتاز القناة بين بور سعيد والإسماعيلية ، لقد رددت فى إيمان بالله ،

(١) سورة الجاثية ، الآية ١٣

وعرفان لظاهر قوته وفواضل نعمه ورحمته ، قوله تعالى : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »(١).

وقوله : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير * ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص »(٢).

فلما ركبت هذه السفن مرات بين بور سعيد والإسكندرية ، وبين بيروت وثغرليما سول فى جزيرة قبرص ، ورأيت فيها مطالب الحياة ، وملاعب الكبار والصغار ، عرفت أنها مدن عائمة ، وأنها آية لله الذى يقول : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون »(٣).

* * *

وكان معلم الناس الخير صلوات الله عليه إذا أمطرت السماء ، قال : (اللهم صيباً نافعاً) يكرر ذلك .. رواه أحمد والبخارى .

وكان يوصى صحابته بالدعاء ، والمطر ينزل ، ويقرر أن ذلك أرجى للاستجابة !

وقام يخطب المسلمين يوم جمعة .. قال أنس : فدخل المسجد رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله

---

(١) سورة الرحمن ، الآية ٢٤ (٢) سورة الشورى ، الآيات ٣٢ — ٣٥
(٣) سورة يونس ، الآيتان ٢٢ و ٢٣

يغثنا ، فرفع الرسول يديه ، ثم قال : (اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا) .

قال أنس : والله ما نرى فى السماء من سحابة ولا قزعة .. (السحاب المتفرق) وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، إذ طلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء ، انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً — أى أسبوعاً .

ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة التالية ، والرسول يخطب ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا ، فرفع الرسول يديه ، ثم قال : (اللهم حوالينا ، ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر) .

فانقطعت ، وخرجنا نمشى فى الشمس (رواه البخارى ومسلم) .

ومن عجب أن المؤمنين عطلوا — فيما عطلوا من هدايات الإسلام — سنة صلاة الاستسقاء ، وهم يلقون — فى أعوام بعد أعوام — احتباس المطر ، بشؤم ظلم بعض الحكام ، وتهالك الناس فى الآثام ، وغفلة الخاصة عن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإرشاد العامة إلى الحلال والحرام ، وانشغال العامة بحطام الحياة وتكاليف العيش إلى المدى الذى يغفلون فيه عن التذكير بحقهم فى المعرفة بالإسلام ، وما يحفل به من موجبات عزتهم ومتعتهم وعافيتهم وسعتهم ..

أخرج أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : شكى الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط المطر ، فأمر بمنبر فوضع له فى المصلى ، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه . قالت : فخرج حين بدأ حاجب الشمس ، فقعد على المنبر وكبر وحمد الله تعالى ، ثم قال : (إنكم شكوتم جدب دياركم ، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم الله أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم) .

ثم قال : (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله ، يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين) .

ثم رفع يديه ، فلم يزل فى الرفع حتى بدأ بياض إبطيه ، ثم حول إلى الناس ظهره ، وحول رداءه ، وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ، ونزل فصلى ركعتين ، فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى ، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى السكن ، ضحك حتى بدت نواجده ، ثم قال : (أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله ورسوله) .

ذلك رسول الله أمام إحدى نعم الله ، وإحدى رحمات الله بعباده ، مستبشر ذاكر شاكر ، يعلم الغافلين أن التفكر والتدبر من خير ما ينبغى أن يسرع إليه الإنسان الرشيد أمام آيات الله الظاهرة « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »[1] .

ذكر السيد رشيد رضا رحمه الله فى ختام تفسيره لقول الله تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها .. »[2] قوله : (وقد قال علماء الغرب : إن الفارق الحقيقى بين الإنسان المدنى والإنسان الوحشى هو التفكر) .

ثم قال : (فبقدر التفكر فى آيات الله تعالى المنزلة على رسوله ، وآياته فى الأنفس والآفاق ، وسننه وحكمه فى البشر وسائر المخلوقات ، يمكن ارتقاء الناس فى العلوم والأعمال من دينية ودنيوية) ج ٩ ، ص ٤٠٩

---

(١) سورة ق ، الآية ٣٧ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٧٤ — ١٧٦

وليت المؤمنين حين قصرت هممهم عن القدوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذون العبرة من هذا المثل ..

قال عطاء السلمى : منعنا الغيث فخرجنا نستسقى ، فإذا نحن بسعدون المجنون بين المقابر ، فنظر إلىّ ، ثم قال : يا عطاء ، أهذا يوم النشور ؟ أم بعثر ما فى القبور ؟ فقلت : لا ، ولكننا منعنا الغيث ، فخرجنا نستسقى ! .

فقال : يا عطاء ، بقلوب أرضية ؟ أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بقلوب سماوية ..

فقال : هيهات .. يا عطاء . قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا ، فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه .. وقال : إلهى وسيدى ومولاى ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن أسألك بالمكنون من أسمائك وبما وارت السحب من آلائك ، إلا ما سقيتنا ماءً غدقاً ، فراتاً تحيى به العباد ، وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شيء قدير .

قال عطاء : فما استتم كلامه ، حتى أرعدت السماء وأبرقت ، وجادت بمطر كأفواه القرب ، فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدونا ... إذ لمولاهمو أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين الكليلة حباً ... فقضوا ليلهم وهم ساجدونا
شغلتهم عبادة الله حتى ... قيل فى الناس إن فيهم جنونا

إن الله تعالى « ينزل الغيث » لا يستطيع إنزاله سواه ..

قال تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير »[١] .

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤

وقال سبحانه : « أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون »[1] .

ويوم كان المسلمون أمة واحدة كما خلقهم الله ، وكما ينبغى أن يكونوا أبداً .. وكان من سواهم يذعن لهم بالولاء ، كان الخليفة هارون الرشيد يرمق السحب الثقال وهى منطلقة فى سماء الله فوق بغداد — دار الخلافة الإسلامية يومئذ — فلا يقول كما يقول كثيرون اليوم — أنا وبعدى الطوفان — ولكنه يذكر المسلمين فى مختلف ديارهم وشتى منازلهم ، وهم يتواصلون ويتكافلون فيقول : (أمطرى فى أى واد شئت ، فإن خراجك سيصل إلينا) .

وكم فينا من مثل هارون الرشيد ، ينظر إلى الجماعة ، ويؤثر المصلحة العامة ، ويرى المسلمين فى شتى منازلهم كلا لا يتجزأ ، يسع بعضهم ما يسع الآخرين ، ولا يقول أحدهم : (إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر) ، كما قال أبو فراس ، ولكنهم جميعاً « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، كما مدح الله الأنصار فى سورة الحشر من كتابه الخالد .

ورحم الله شيخ المعرة أبا العلاء إذ قال :

فلا هطلت علىّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وقال :

ليت دموعى بمنى سُيِّلت ليشرب الحجاج من زمزمين

وفى كتاب الكون المفتوح صفحات ليتنا نرجع فيها الطرف كرات وكرات لنزداد بالله إيماناً وعرفاناً « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »[2] .

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٦٨ — ٧٠ (٢) سورة الذاريات ، الآية ٢١

مفهومات اسلامية

١ — مكانة الإنسان فى هـذا العالم تبـدو من اسـتخلاف الله له فى عمارة أرضه وإصلاح كونه بما وهبه الله من عقل راجح وقدرة وافرة على الانتفاع بمـا فى ملكوت السموات والأرض من ينابيع الغنى والقوة مع قيامه بحق المنعم الواهب فى الذكر والعبادة والشكر فى اتساق ومواءمة لا تطغى فيها طاعة الله — وما أجلها — على العمل فى مختلف مجـالات النشاط البشرى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[١] .

وقد امتاز أبو البشر — آدم عليه السلام — بهذه المكانة منذ خـلقه الله بيده من قبضة من تراب هذه الأرض وسوّاه على صورته ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته بعد أن ميزه بعلم ما لم يعلم ســواه ، ودار بينه سبحانه وبينهم ذلك الحوار الذى يجلوه قوله تعالى لمصطفاه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم ما لا تعلمون * وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علـم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم * قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[٢] .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ١٠ (٢) سورة البقرة ، الآيات ٣٠ — ٣٣

فنى الآيات استخلاف آدم ، وشرف العلم الذى لم ترتفع الملائكة بعبادتهم لله إلى مستواه ، وتواصت به سائر شرائع الله ، حتى جاءت الرسالة الخاتمة ، وأشاد كتابها الخالد فى أول ما نزل من آياته على سيدنا محمد بالعلم والقراءة والقلم والبيان :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم »(١) .

وأقسم بالقلم وما يسطرون فى أول سورة القلم ، وباهى فى صدر سورة الرحمن بخلق الإنسان وتعليم القرآن والإعراب عن مقاصده ، والإبانة عن مراميه ، ومجد العلم والعلماء فى أكثر من مقام فى القرآن الكريم ، وكفى باعتداده بشهادتهم بوحدانيته شاهداً .

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(٢) .

وتبين آيات سورة البقرة مع ما ذكرنا شمول العلم واتساع آفاقه بحيث لا يقف عند حدود عقيدة التوحيد والعبادات التى تحكم بين الناس عرى الأخوة الإنسانية والأخوة الإسلامية ، وتضع لهم قواعد التعاون الصحيح فى نظام لا تصلح حياتنا الدنيا إلا به ، ولا تحسن الآخرة على غير أساس منه ، فالله يقول : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، وهى كلية تستوعب — لا ريب — ما خلق الله وما سيخلق وما تتمزق عنه حجب الخفاء بالعلم الذى لا ينبغى أن يسبقنا فى مجالاته شعب من الشعوب أو جماعة على ظهر هذا الكوكب بعد أن عرفنا مكانه من كتاب الله ، وقررت السنة المطهرة أن مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء يوم القيامة ، وأن الرسول الكريم تعوذ بالله من علم لا ينفع بعد أن قال له

(١) صدر سورة العلق .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨

مـولاه : « وقـل رب زدنى علماً »(١) ، وامتن سبحانه عليه فقال : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »(٢) .

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقـول : (اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علماً) رواه النسائى.

بهذا العلم المضىء المثمر أسجد الله ملائكته للإنسان المستخلف ، فقال : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ... »(٣) .

٢ — وامتاز بمكانة الخلافة عن الله على أساس من العلم والعمـل الصالحون من بنى آدم ، فقد جمع الله للمرسلين عليهم السـلام ، بين شرف العلم وكرامة العمل ، فكان نوح يصنع الفلك ، وكان داود يصنع الدروع السـابغات ، وأكد الأنبيـاء والمرسلون لأممهم أن العـلم بالله وبالحياة وما تستوجب من عمل بناء فى وجوه العمل الشريف ، هى مجال التفاضل فى الدنيا والآخرة ، وأنها سبيل البقاء فى الخلافة الحقـة عن الله ، فقد حكى الله تعالى قول هود لقومه : « فإن تولوا فقـد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ... »(٤) .

وقال صالح لثمود : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »(٥) ، كما حكى سبحانه فى آية ١٢٩ من سورة الأعراف من مقالة موسى لبنى إسرائيل : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » . وقال للأمة الوارثة : « وهـو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »(٦) .

---

(١) سورة طه ، الآية ١١ٸ — (٢) سورة النساء ، الآية ١١٣
(٣) سورة البقـرة ، الآية ٣٤ — (٤) سورة هـود ، الآية ٥٧
(٥) سورة هـود ، الآية ٦١ — (٦) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥

وما يكون تخالف الناس جيلا بعد جيل نعمة على أحد ولا يكون تتابعهم قبيلا بعد قبيل حياة يبالى الله بها إلا إذا أعطوا الله ووصايا الخير من أنفسهم حظهما من الرعاية والاعتبار ، فلقد يبلغ الناس بالحضارات المادية والعلم المطلق حظوظاً من علو الشأن وزهو السلطان، ولكن ذلك كله لا يلبث أن يتبدد كسحاب الصيف فلا يبقى منه غير قبض الريح والحسرات المذهلة .

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »[1] .

والعلم بالله واتباع هداه وحدهما ، هما اللذان يكتمل بهما الخير ، وتزدهر الحياة ، ويشدان الخلف إلى السلف فى مواكب العزة (ومن لم تعزه التقوى فلا عز له) كما قال الإمام الشافعى . ورحم الله أبا حفص عمر ، فقد كان يقرأ قول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[2] ، ثم يقول : (من أحب أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها) .

قال السيد المودودى فى كتابه (تفسير سورة النور) ص ٢٢٣ ، فى قوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[3] .

(والله تعالى يقول عن هؤلاء جميعاً — الكفار والمنافقين — إنهم لا يقضون حياتهم ، من بدئها إلى آخرها ، إلا فى حالة الجهل الكامل

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١١

(٣) سورة النور ، الآية ٤٠

ولو كانوا حسب اعتبار الدنيا كبار علمائها وأساتذتها الذين قد سبقوا سائر أهلها فى الفنون والعلوم والاختراع ، ولكن مثلهم حسب بيـان القرآن كمثل رجل يعيش فى مكان ليس فيه إلا الظلمة ولا ينفـذ إلى جوانبه شعاع واحد من النور ، ويظن هؤلاء أن العلم إنما هو عبارة عن اختراع القنبلة الذرية أو الهيدروجينية أو الصاروخ الطائر إلى القمر ، وأن المهارة فى الاقتصاديات والماديات والقانون والفلسفة هى العلم ، ألا إن العلم الحقيقى هو شىء آخر ليسوا على أدنى إلمام بألفه وبائه ، حيث أن رجلا من البدو هو أعلم منهم إن كان سعيداً بمعرفة الحق) .

٣ — وآيات القرآن اللافتة إلى الأنفس والآفاق حجة لله على الذين يعطلون قواهم ويتقاعسون عن إعمال مواهبهم فى استغلال ينابيع الخير التى بثها الله عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم فى بر وبحر فى أخصب أرض وأعدل جو .

قال تعالى : « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون * تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »[1] .

فلا يتساءلن المتواكلون الذين يتمنون على الله الأمانى بلا عمـل ، والذين يقولون نحن نحسن الظن بالله ، متخاذلين عما ندبوا إليـه من الأخذ بالأسباب ، ما نصيبنا من الدنيا ؟ وأين حظنا من الحياة بعد أن فاتهم الصلاح الذى ملك الله به مقاليد الأرض للعاملين ، فقال تعالى :

---

(١) سورة الجاثية ، الآيات ٣ — ٦

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[١] .

والله الذى ذلل الأرض ليسلك الناس منها سبلا فجاجاً ، فقال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »[٢] ، « الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا »[٣] ، « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون »[٤] قد أسقط أعذار الكسالى القاعدين عن العمل ، بينما كل ما حولهم من أفلاك وكائنات يتحرك ويعمل ، ويجيئهم النذير من مملكة النحل وجماعات النمل وما وراءها إن هم غفلوا عن مغازى القسم فى القرآن الكريم بـ« الشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء ومابناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها » .. وتتبع أمثال هذا القسم فى سور كثيرة وآيات من كتاب الله ، فسيطل بك ذلك التتبع على مجالات من العزة التى أرادها الله للعاملين الذين يقول لهم : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »[٥] . « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »[٦] .

وفى سورة عبس (آيات ٢٤ — ٣٢) ينوه الله بالزراعة فيقول سبحانه : « فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وأعظم المنة بالأنعام ووسائل النقل المعروفة والتى سيتمخض عنها الغد فى صدر سورة النحل جلاء لمعنى تكريم الإنسان أنفس مخلوقاته .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥ (٢) سورة الملك ، الآية ١٥
(٣) سورة طه ، الآية ٥٣ (٤) سورة النحل ، الآية ١٥
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٩ (٦) سورة الجاثية ، الآية ١٣

وليتنا أملينا لعقولنا وأفكارنا فى مثل قول الله تعالى : « كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل »[1] .

لنعرف أن القرآن كتاب الدين والدنيا ، قد وضع بين أيدى الناس أصول ما يسمونه علم الرى الحديث عن طرق رى الزروع والأشجار من أعلى .

وفى قوله سبحانه : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار »[2] .

درس تعلمه رجال الزراعة أو ينبغى أن يتعلموه من كتاب الله ، ليعطوا غراسهم وزروعهم حقها من سعة المكان الذى تدرك فيه أكبر حظوظها من الشمس والتهوية ، فبذلك وبالعناية بتنقية ما ينبت حولها مما لا نفع فيه تعطى ثمرتها على مستوى ما تعطيه الزيتونة الشرقية الغربية .

ولقد غالى النبى — الذى لا ينطق عن الهوى — بجهد الزراع وثوابهم فقال : (ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو حيوان إلا كان ذاك كفارة له) .

ومرَّ عمر بن الخطاب رضوان الله عليه بزيد بن مسلمة وهو يغرس فى أرضه ، فقال له : (أصبت ، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم) ، كما قال صاحبكم :

ولن أزال على الزوراء أعمرها   إن الكريم على الأقوام ذو المال

والتجارة من موارد المال ، وقد احتفى بها الإسلام وبين ضرورتها لنظام الحياة وصورها ووجوه الوصول بها إلى مرضاة الله ، وحسبها أن الله قرنها بالجهاد فى سبيله ، وما أشرف الجهاد وأجزل ثوابه ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٥   (٢) سورة النور ، الآية ٣٥

فقال فى التجار والمجاهدين : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله »[١] .

وجعل الرسول التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة ، وكان صلوات الله عليه تاجراً فى مال خديجة ، وكان غير واحد من صحابته رضوان الله عليهم تجاراً ، تتعطر بذكرهم التجارة ، وهم حتى الساعة معالم على طريق أهلها ، وأسوة طيبة لطلاب الكمال الممكن فى ذلك العمل الجليل .

وفى سورة الحديد فى القرآن الكريم تنويه بالصناعة وبيان لامتياز هذا العنصر على المعادن الأخرى التى لا تؤدى دوره — وإن غلا ثمنها وارتفعت إلى نحور الحسان ومعاصمهن — فى العمارة ووجوه الحضارة ومظاهر التقدم البناء فى فرص الرخاء وفى حفظ التوازن وإقرار السلام بين الناس ، قال تعالى :

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »[٢] .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم ! !

٤ — والإسلام ، وهو دين ودنيا ، يعرف دور المال فى ازدهار الحياة وأثره فى إبلاغها كمالها الممكن ، ويقرر أن سبيله العمل فى كل مجال مشروع وطلبه من حسان الوجوه وشريف المكاسب ، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال أبو حفص أمير المؤمنين فى كلمته السائرة ، والنبى صلوات الله عليه يقول فيما روى الإمام أحمد : (نعم المال الصالح عند الرجل الصالح) .

وكان من أدعية عمر رضى الله عنه : (اللهم اجعل المال عند

---

(١) سورة المزمل ، الآية ٢٠ (٢) سورة الحديد ، الآية ٢٥

خيارنا فلعلهم يعودون به على ذوى الحاجة منا) . وسعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد نقباء العقبة كان سخياً جواداً ، وكان كثيراً ما يقول : (اللهم هب لى مجداً ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم إنى لا يصلحنى القليل ولا أصلح عليه) . وكان سفيان الثورى وهو من كبار التابعين فى ثروة حسنة ، وكان يشير إليها ويقول لولده : (لولا هذه لتمندل بنا هؤلاء) يعنى بنى أمية . ومن أقواله فى (وفيات الأعيان) : (ومن كان فى يده من هذه الدراهم شىء فليصلحه فإنه فى زمان إن احتاج كان أول ما يبذل دينه) . وفى صورة من صور إصلاح المال يقول النبى صلوات الله عليه : (من باع عقاراً أو داراً ولم يجعل ثمنها فى مثلها لم يبارك له فيه) .

ويقول حبر قريش ابن عباس رضى الله عنهما : (إنى لأن أدع لأولادى مالا يحاسبنى الله عليه خير من أن أدعهم عالة يتكففون الناس) .

وهو يلحظ فى ذلك قول رسول الله صلوات الله عليه لسعد ابن مالك حين أشفى على الموت من مرض زاره النبى فيه وعرض على الرسول أن يتصدق بثلثى ماله ، فنهاه عن ذلك وعن التصدق بشطره وقال : (الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس ، وعسى أن يطول بك عمر وينفع الله بك أقواماً ويضر آخرين) .

وقد طال عمر سعد ورزق بعد ابنته الذكور ونفع الله به المسلمين فى القادسية ، وانتقم به ممن تشبثوا بكفرهم .

ولعل مغزى اكتفاء النبى بالثلث من مال سعد واعتباره كثيراً يبرز واحداً من فروق كثيرة بين الإسلام الواقعى دين الحياة وبين المسيحية ، فبينما يروون قول عيسى عليه السلام للرجل الذى أراد أن يدخل ملكوت الله : (انفق مالك واتبعنى) ، نرى الله تعالى يقول

لمصطفاه فى قصة كعب بن مالك من الثلاثة الذين خلفهم رسول الله بعد تبوك : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم »[1] .

إن التمول مباح فى الإسلام مأذون فيه حين تكون وسائله إسلامية وفى ضروب العمل المشروع ، والمشرّع لا يأذن بشىء ثم يعاتب عليه ، وقد أمرنا الله بالعمل وندب له خلفاءه فى أرضه ، فكيف لا يبيح لهم ما فضل من نفقتهم وزاد عن حاجتهم ؟!

وقد تمول أصحاب الرسول ، وأنفق أبو بكر بسخاء على الدعوة فى مكة وأتى بكل ماله يوم تبوك ، وجاء عمر بنصف ماله يومئذ واحتجز نصفه نفقة لعياله ، وجاء ذو النورين بالكثير الكثير الذى أثلج صدر النبى ودعا له برضوان الله ، وكان رجل كتميم الدارى رضوان الله عليه يشترى الحلة بألف درهم ويقوم الليل فيها !!

وما كان الغنى مذموماً إلا بما يورث أقواماً من طغيان وشح وإغراق فى اللهو ، والغنى الشاكر والفقير الصابر بمنزلة سواء فى رضوان الله .

ولقد ذهب المسلمون يلتمسون رزق الله فى أخوة وتراحم وإيثار ، أثنى الله به على أوائلهم فقال : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[2] .

وكانوا يجدون أمداد الفطرة الخيرة التى فطرهم الله عليها فى مثل قول الله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ (٢) سورة الحشر ، الآية ٩

الليل والنهــار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعــدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »[1].

والظلوم الكفار : هو الذى غفل عن مراد الله من تكرار كلمة (لكم) فى هذه الآيات ، وفى قوله : « خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » وفقد نصيبه من قول الله فى المؤمنين : « أشداء على الكفار رحماء بينهم »[2] .

والظلوم الكفار : هو الذى انطمست فيه حقيقة الإيمان بالله ، وجهل معنى الدين الذى رضيه الله شرعة ومنهاجاً .. وأنه أكبر من الصلاة التى يؤديها غافلا ، والصوم الذى يصومه ذاهلا ، والحج الذى يقوم بمناسكه جاهلا حكمة الله منها ، فالدين صلة وثيقة بين المخلوق والخالق تستتبع مراقبة الله فى كل ما نأتى وما نذر .

كتب الكاتب الإسـلامى الكبير الأستاذ محمود محمد شـاكر فى إحدى مقالاته التى رد بها عن الإسلام باطلا ... وسلط الأضواء على خسة وخبث يبدوان تارة ويختفيان فيما يسوِّده بعض أدعياء الأدب والمعرفة فى جرائد ومجلات متحدة الغرض فى كثير من أقطارنا ، قال :

(والدين عندنا اسم جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته منذ يستيقظ من نومه إلى أن يثوب إلى فراشه وفى كل عمل يعمله مهما اختلفت هذه الأعمال من أصغرها وأدناها إلى أشرفها وأعلاها ، كل ذلك هو مسئول عنه يوم القيامة كما هو مسئول عن صلاته وصيامه وزكاته ، إلخ[3] ، ولقد قلت يوماً :

(والدين وحده هو طوق النجاة من ضنك العيش وسوء المصـير ، وهو رحمة الله تتدارك من يخشونه إذا زلت بهم فى الشهوات قدم ، أو زاغ منهم أمام فتن الحياة قلب ، وما كان الدين سوى شكائم من أهواء

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٢ — ٣٤ (٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩

(٣) عـدد مجلة الرسالة بتاريخ ١٩٦٥/٢/٢٥

يخبو بها العقل كما يخبو الشعاع ويهون العرض كأنه سقط المتاع ، ونمضى بها فى لجج الحياة وكأننا الفلك التى لا يعصمها فى العاصفة مجداف ولا شراع) .

سكران سكر هوى ومسكر مدامه ومتى أفاقه من به سكران

(والدين بعد يفصل الحلال والحرام ، ويميز الخبيث من الطيب ، ويبرز المعروف والمنكر ، ويدع للعقول المبصرة والأفكار النيرة أموراً تعمل فيها الرأى جهدنا ولا ننتظر فيها بينة من ربنا . يقول النبى صلوات الله عليه : (إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[1].

وما يقيم جوانب الحياة الطيبة ويجعلها مزرعة الآخرة إلا الإسلام دين الحياة ، فهل تصح النيات على أن نفهمه ديناً ودنيا ، وهل تصدق العزائم على أن نأخذه كله عقيدة وشريعة وسلوكاً راشداً وأن لا تخلب أبصارنا دونه بهارج حياة الآخرين ومدنياتهم التى فرقتهم شرقاً وغرباً ، وجعلتهم شعوباً تتنابز بالألقاب وتتقاذف الشتائم والسباب ، وكأنهم وكأن الدين معهم كما قال الشاعر محمود غنيم :

شعوب ببطن الأرض يفتك بعضها
ببعض كما يسطو على الحمل الذئب
يمثل بالإنسان فيها وربما
ينام قرير العين فى ظلها الكلب
كأن ليس بين العالمين شرائع
ولا خلفهم بعث ولا فوقهم رب

---

(١) كتاب (الإسلام والأسرة) للمؤلف ، ص ١١٦ ، أصدرته دار النشر للجامعيين فى بيروت عام ١٩٦٠ م .

الاسلام دين الحياة

كانت عناصر الفناء تشيع فى جـوانب المجتمع المكى ، وتبـدو دواعى الهلاك فى مختلف نواحيه قبل أن ينعم الله على البشرية بالإسلام دين الحياة ، وكان المجتمع المكى على ضلاله وفساده خيراً من مجتمعى فارس والروم اللذين كانا يؤلفان مع العرب الحياة كلها يومئذ ، فما كان للفرس ولا للروم حظ من سجايا النجدة والمروءة والكرم وإباء الضيم وصيانة الحرم والضن بالمرأة أن تبتذل أو تكره على مزاحمة الرجال فى مسارب الحياة ، وهى سجايا عربية أصيلة يقول معها قائلهم :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جـارتى مأواهـا

ولقد تمثل الرسول صلوات الله عليه هذه الفضائل وغيرها وهـو يقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وأقرأ فى كتب الملل والنحل ، وفى كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجـوزى ، تفصيل مفاسد الروم والفرس ، وانحرافهم عن الفطرة ومخايل تكريم الله للإنسان ، فى شيوعيتهم فى الأعراض واستباحتهم للحرم وتحريمهم جمع المال من وجوه الحلال .. وأى شناعة وراء حل فروج الأمهات فى مذهب مزدك ، وقولهم : (الابن أحرى بتسكين شهوة أمه) ! !

ومالبث صلوات الله عليه يوالى كراته الصابرة الظافرة على معاقل الشرك وعتو الجاهلية ، حتى بدل الإسلام بجزيرة العرب خلقاً آخر فريداً يرسل النور عبر الحياة كلها ، وتطيف بمنازل الوحى فيهـا ، وما تزال أرواح المؤمنين وأشواقهم إلى يوم الدين .

قال قتادة بن ثعلبة السدوسي : (كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من أهل الأرض كانوا أشر منهم منزلة ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق وجعلهم ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر فى مزيد من الله) .

أجل بالإسلام ، دين الله ، أعطى الله العرب مجداً تالداً ، وذكراً خالداً ، قال تعالى : «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون»[١] . وقال : «وإنه لذكر لك ولقومك»[٢] . وقال : «نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين»[٣].

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه) .

واستجلت الحياة وما تزال تستجلي الجديد الطارف من هبات دين هو الدين دون غيره «إن الدين عند الله الإسلام»[٤] .. «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ..»[٥].

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره مستظهراً بهذه الآية : (فمن لقى الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّل) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٠ (٢) سورة الزخرف ، الآية ٤٤

(٣) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣ — ١٩٥

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٩ (٥) سورة آل عمران ، الآية ٨٥

وكانت منة الله الكبرى على رسول الله والذين آمنــوا معــه وهو يوحى إليه من فوق عرفات فى حجة الوداع ، وكان يوم جمعة : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »[(١)].

وماذا وراء ما أكمل الله من دين ، وأتم من نعمة ، ورضى لعباده شرعة ومنهاجاً ، إلا الكفر والضلال والفجور والانحلال وآراء رجال يخطئون أضعاف ما يصيبون ويهرفون كثيراً بما لا يعرفون « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[(٢)].

صـار العرب بالإسـلام ألوية عدل وموازين حق وينابيع خـير وفضل ، والذين يريدون أن يكونوا امتداداً صالحاً لهذه الأمة الفاضلة يستطيعون أن يستجيبوا لأبى حفص أمير المؤمنين ، فلقد قرأ قول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[(٣)]، ثم قال : (من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها) .

حول الإسلام هـذه الأمة تحويلا كاملا وبلغهـا بالطهر والكرامة والاستقامة على سبيل المؤمنين حداً رضى الله عن أوائلنا به وجعلهم وزراء لنبيه وأثنى عليهم بقوله :

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ — (٢) سورة النور ، الآية ٤٠
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[1] .

كان سيدنا عمر بن الخطاب قبل أن يسلم قاسى القلب ، شديد اللدد للمسلمين ، كان يمر بجارية بنى مؤمل بعد أن أسلمت فيعذبها كى ترتد عن دينها ، فإذا ملّ من ضربها وأضناه ما أنفق من جهد فى تعذيبها قال : (إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة)[2] ! !

فتقول جلدة صابرة محتسبة : (كذلك فعل الله بك) .
فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

ولم يلبث أبو حفص غير قليل حتى استجاب الله به دعوة نبيه (أن يعز الله الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) . فأصبح جاسى الفؤاد بالأمس أندى بالإسلام من الماء وأرق من الضياء تحمله الدعوة الإسلامية من أمره رهقاً ، فهو رحيم بالرعية يتعهد أمورها جهده ويجوس خلال الديار متنكراً ليتعرف بنفسه أحوال المؤمنين ، وقصصه فى ذلك ترتفع به عن الشبيه والنظير فى عام الرمادة ، وأيام خلافته كلها .

قال الأسود بن أبى يزيد : (كان الوفد إذا قدموا على عمر رضوان الله عليه ، سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ، هل يجلس على بابه ؟ فإذا قالوا لخصلة منها : لا ، عزله) .

إن الحياة فى حاجة ملحة إلى هذه النماذج المؤمنة من الرجال الذين تعطى أفعالهم وتصرفاتهم المعنى الحقيقى لدين الله ، لتهديها من ضلال

(١) سورة الأعراف ، الآيتان ١٥٦ و ١٥٧ (٢) سيرة ابن هشام .

وتريحها من كلال وتوحد صفها الذى تمزق إلى شرق وغرب وإلى مذاهب وأفكار ويمين ويسار ، فما يجمع القلوب المتدابرة والأرواح المتنافرة شيء كدين الله الذى يرد كتابه الناس فى حنو وإيناس إلى الأب الواحد الذى تلتقى الأصول كلها فيه عند تراب هذه الأرض ، ثم يربط القرآن المؤمنين بالأخوة التى يحصر فيها الإيمان كله فيقول : « إنما المؤمنون إخوة »[1] ، ويضائل من الاستطالة بالغنى ووفرة المال وشرف الآباء والأخوال ، ويرفع فوق ذلك شرف الإيمان والعمل والأخوة الإسلامية وما توجب من تراحم وإيثار وتعاون صحيح .

وإذا فاتك التفات إلى الماضى   فقد غاب عنك وجه التأسى

وسيطول إلى ذلك كله من هبات الإسلام حنين العالم اليوم وكل يوم يقبل من خلال ما يبهظه ويفدحه من الأثرة الهادمة والأنانية الظالمة وسباق التسلح بالذرة والصواريخ عابرة القارات والأقمار الصناعية التى ينفق فيها الشرق والغرب على السواء الملايين التى تحتاج إلى بعضها البشرية فى ضرورة تعمير الصحارى ، وتوفير مياه الرى للتنمية الزراعية ، وفى التنمية الاقتصادية ، واكتشاف العقاقير لعلل الحضارة ، والأمراض التى لم تكن فى أسلافنا ..

قال عبد الله بن عمر : (كنت خامس خمسة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف أنتم إذا ظهرت فيكم خمس ، وأعوذ بالله من أن تكون فيكم أو تدركوهن .. ما ظهرت الفاحشة فى قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وما نقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠

وشدة المئونة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفد بعض ما فى أيديهم ، ولا عطلوا كتاب الله وسنة رسوله إلا جعل الله بأسهم بينهم) رواه البيهقى وابن ماجـه والحاكم .

وإمعان النظر فى كلام الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، يعقد شبهاً قوياً بينه وبين المجتمع المعاصر ، ويشير بإصبع إلى جوانب فى حياة الناس تسارع بالعقلاء إلى العمل فى غير هوادة لرد الناس إلى دين الله قبل أن يجتاحهم نذيره فى قوله : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »[1] .

إن مجتمع أرض النبوّات ليستورد من مجتمع الحضارات الصناعية مع الكفر والإلحاد ضروباً من الشر والفساد ترتكس بعبيد شهواتهم إلى ما لم يعهد فى عالم الدواب والهوام) .

وبين يدى قصاصات من جرائد السويد ، ترجم بعض مبعوثينا شيئاً مما نشر فيها ، فكتب تحت خبر من الأخبار : (عمرها (٢٥) سنة وعمره (٣٤) ويعيشان فى شقة بغرفتين فى مدينة بوسط السويد ، وعندهما ابن عمره ثمان سنوات ويريدان .. أن يتزوجا .. ولكنهما إخوة ، والآن تقدم والداهما إلى البوليس يطلبان منع هذا الزواج) .

وفى جريدة (أخبار المساء) الأردنية فى ١٢ / ١ / ١٩٦٧ :

(حاول أحد أعضاء مجلس النواب السويدى أن يعرض على المجلس تغيير القانون كى يستطيع الرجال أن يتزوجوا من أخواتهم ، كما أن أحد أعضاء البرلمان وهو من حزب الأحرار واسمه شتمة شوهلم ، سيحاول أن يعرض على البرلمان مناقشة هذا الموضوع .

---

(١) سورة محمد ، الآية ٣٨

ولقد جاءت خطوته هذه بعد أن قررت محكمة فى كارلكوكا فى السويد أن تدع رجلا عمره (٣٤) سنة يستمر فى المعيشة مع أخته وعمرها (٢٠) سنة كشخصين متزوجين ، وقد اعترفا فى المحكمة بأنهما قد خالفا القانون ، وأنهما مستعدان لأية عقوبة وقد نظرت المحكمة فى أمرهم وقررت أن تدعهم يعيشون مع بعضهم ، خاصة وأن طفلهم الذى عمره ثمان سنوات طفل طبيعى .

وماذا نذكر من أمثال هذا الشذوذ وماذا ندع ؟

إن العقل البشرى فى أرشد حالاته ، لا يعرف إلى آخر الزمان ديناً كالإسلام يأتلف مع الحياة ولا يختلف ، ويفى بحاجات الإنسان المنطلق إلى ما أراد الله له من السيطرة على ما خلق فى طهر وشرف وكرامة ، واختصه بها منذ قال سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] .

والتفاعل الأصيل بين الإسلام وطبيعة الكون وموافقته لسنن الحياة تكشف لنا ضرورة وساطته بين الأحياء وبين الحياة التى بين حقيقتها حتى لا نفتن بها ، متجاوزين دور السيادة الرشيدة التى تتأدّى بنا إلى سيادة أرفع وأمنع وأبقى وأخلد فى جوار الله .

« وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »[2].

قال أبو الوليد الباجى :

إذا كنت أعلم علم اليقين	أن حياتى ، جميعاً ، كساعه
فلم لا أكون ضنيناً بها	وأصرفها فى صلاح وطاعه ؟!

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ (٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤

وإذا كانت الدنيا لا تبقى لأحد ، ولا تدوم على حال ، إلا كما يمسك الماء الغرابيل — كما قال الشاعر القديم — فإن الآخرة لا انقضاء لها ولا زوال ، قال تعالى : « وما عند الله باق ... »[1] .

ووساطة الإسلام ضرورية بين الأحياء وبين الحياة التى خلقها الله لهم لينظر كيف يعملون فيا استخلفهم جل شأنه عليه ، من إصلاح ما فسد ، وتقويم ما اعوج ، وجمع ما تفرق بيننا ، وهم يؤدون حق الشكر والذكر والإذعان لرب العالمين .

فهل يحتاج الإسلام دين الحياة فى ذلك إلى دليل ؟

إن التفاعل الأصيل بين الإسلام وطبيعة الكون وائتلافه مع الحياة الحقة ، ليس دعوى ينقصها البرهان ، ولا هو قضية يعوزها الدليل ، وخذ إن شئت أى شيء مما حولك من قريب أو بعيد ، إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، أى شيء مادى أو معنوى ، منذ كانت الدنيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فستجد الإسلام وكتابه وسنة رسوله وعمل صحابته وآثارهم — وهم بعد رسول الله صلوات الله عليه قدوة وأهل اتباع — قد اعتبرت هذا الذى استرعى انتباهك ولفت نظرك ، فتركت لنا فيه بياناً لا نضل الطريق معه ، ونحن نأخذه بشرط الإسلام أو ندعه .

والإسلام يسد بذلك منافذ الهوى ، ويوصد دوننا مسارب الشهوات ، وهو يجعل لكل شيء حكماً ، ويحدد لكل أمر من أمور الحياة اتجاهاً ، لا يخالف عنه إلا باغ متجاوز حدود الله « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »[2] .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٦ (٢) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦

ولهذا كانت مسئولية الإنسان فى الإسلام بعد أن فصل الله الأحكام وبين الحلال والحرام ، وميز الخبيث والطيب ، مسئولية كاملة امتاز بها عما سواه من مخلوقات الله ، فهو مسئول عن عقيدته وعبادته ، مسئول عن صحته وأسرته ، مسئول إلى حد كبير عن المجتمع المحدود الذى يشكل فيه عنصراً بارزاً ، مسئول عن الإنسانية التى هو أحد أفرادها ، مسئول عن كل ما يقول ويعمل فى ليل أو نهار ، وفى سر أو جهار ، منذ قال المعصوم صلوات الله عليه : (أنت على ثغر من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك) .

وقال : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع)[1]

وقال : (كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى مال زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2].

ومسئولية الإنسان فى الإسلام مظهر تكريم الله له ، وهى تنبئ عن حقيقة مكانته ومكانه فى قومه ومجتمعه وزمانه ، وعن المستوى الذى بلغه من استخلاف الله له فى عمارة هذه الحياة بالقيم والمبادئ الرفيعة التى استوعبها الإسلام وحواها ، وعما أوجب من سهر عليها ، ورعاية لها ، مهما عظم البذل وجل الفداء ، وحرص على التأثر بهدايات الله ، لا التأثر والتقليد الضار وفقدان الذات ، ولا السلبية وعدم التلاحم مع الآخرين ، على أساس من الحق والخير .

كأولئك الذين تجرفهم الأحداث كغثاء السيل ، وتصطلح عليهم وقائع الدهر ، فلا يملكون لها دفاعاً ولا يستطيعون منها امتناعاً ،

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه . (٢) رواه البخارى ومسلم .

وما تكون الأماني والآمال بدون أعمال غير سراب ومحض خيـال ، لا يحققان مراداً ولا يدنيان من غاية مبتغاة ، وصدق الله العظيم : « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون »[١] .

وخطاب الله للإنسان وجه من وجوه استخلافه تعالى له ، بعد أن ورثه العلم الذى آثر به أباه آدم دون الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأسجدهم به لأبى البشر « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »[٢] ، لم يسجد لنعمة العلم وأعطى حجته الداحضة للذين يرفعون اعتبارات المادة بيننا على الكمالات النفسية وجلائل الأعمال التى لا يصطنع الله لها غير الصفوة من أهل العلم والفهم والإدراك الصائب لحقائق الأمور .

قال المأمون لرجل مدحه بالعلم والمعرفة والعقل : (يا أبا محمد ، إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم) .

ودين الحياة هو دين العلم ، لا تختلف بهما السبل ، ولا يشجر بينهما انفصام ولا خصام ، بل إن العلم حين يصدق تناوله وتصح وسائله وتخلص فيه النيات هو الخادم الأمين لا ريب للإيمان بالله ورسالاته « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد »[٣] .

وليس عجباً أن يكون العلم بمكانه ذلك فى دين كانت أولى آيات كتابه نزولا على المصطفى صلوات الله عليه إشادة بالقراءة وتنويهاً بالقلم والعلم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم »[٤] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٣٢ (٢) سورة البقرة ، الآية ٣٤

(٣) سورة فصلت ، الآية ٥٣ (٤) سورة العلق ، الآيات ١ — ٥

ثم يذهب القرآن مذهباً لم يسبق إليه وهو يكرم العلم ، ويعلى قدر العقل ، ويمجد العلماء بصورة يكونون فيها مع الملائكة ، وهو يعلى من قيمة شهادتهم بوحدانيته فى قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[(١)] .

واعتز سبحانه باعتراف العلماء بالحق الذى أرسل به الرسل وأنزل الكتب فقال : « ويرى الذين أُوتوا العلم الذى أُنزل إليك من ربك هو الحق »[(٢)] ، وجعلهم المرجع فيما تختلف فيه آراء الناس فقال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[(٣)]. وكررها فى سورة الأنبياء / ٧

وإذا كان ناس فى شرق الدنيا وفى غربها قد أخذوا بخيوط من هذه الآيات وأمثالها فى كتاب الله وانطلقوا بها فى مجالات العلوم المادية التجريبية ، واضعين نصب أعينهم جهود روّادنا الأوائل من أمثال الرازى وابن سينا وعباس بن فرناس ، فى فترة من فترات التخلف والتوقف والتى واجهناها ، كما واجهتها وتواجهها سائر الأمم ، والتى ضرب علينا منها ليل طويل ، نسينا فيه أمجادنا ، وغفلنا عن حقيقة ذاتنا وقيمة تراثنا ، وتألبت علينا ظروف واصطلحت أقدار ، قيل لنا معها والاستعمار يصرف أمرنا على غير إرادتنا : (عيشوا فى حاضركم) — حاضر التابع الذى يتخلف فى غير تفكير فيما يقدمه المتبوع فى مظهر خالب ومنظر آخذ ، فلقد آن أن نشب عن الطوق وأن نرفع المشعل من جديد لنضىء الدنيا بالإسلام والعلم ، بالإيمان والمعرفة ، بالدين الذى أتم الله به علينا النعمة ، والعقل الذى لا يأبى شيئاً مما جاء به الإسلام ، والذى حاكم الله إليه عباده ، فى مثل قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[(٤)] ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ — (٢) سورة سبأ ، الآية ٦
(٣) سورة النحل ، الآية ٤٣ — (٤) سورة النساء ، الآية ٨٢

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[١] ، « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »[٢] ، « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب »[٣].

لما بلغ حكيم العرب (أكثم بن صيفى) مبعث النبى صلوات الله عليه ، هم بلقائه ليعرف عن كثب حقيقة الدعوة والداعى ، ولكن قومه حالوا بينه وبين ما اعتزم ، وقالوا : أنت كبيرنا ، وما ينبغى أن تخف إلى محمد ، فأصر على أن يأتى النبى من يبلغه عن أكثم ويبلغ أكثم عنه صلوات الله عليه ، واختار رجلين ، فلقيا النبى وقالا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت وما أنت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (أما من أنا ، فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله ، ثم تلا عليهم قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[٤].

فسألوه أن يردد عليهم هذه الآية ، فرددها حتى حفظوها ، فأتيا أكثم بما عاينا وسمعا وعلما ، وقالا : إن الرجل أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عنه فوجدناه زاكى النسب وسطاً فى مضر ، أى شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : (إننى أرى أنه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوساً ولا تكونوا أذناباً) .

ولقد أبصر الرجل ، وصدق قومه النصح ، وضرب المثل فى التجرد من الأهواء ، وهو يقول ما قال عن الإسلام ونبيه صلوات الله عليه .

---

(١) سورة محمد ، الآية ٢٤ (٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ (٤) سورة النحل ، الآية ٩٠

فهل نكون بهذا الدين رءوساً ، حتى نثنى إلينا مرة أخرى عنان الحياة ونرد أمرها إلى حيث كان طهراً وشرفاً وإذعاناً لله ورسوله ، واتباعاً لسبيل المؤمنين ؟

ولقد تلا رسول الله صلوات الله عليه قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى .. الآية » فيما تلا على القوم — من شيبان بن ثعلبة — حين عرض نفسه عليهم وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ ابن قبيصة والمغيرة بن حارثة والنعمان بن شريك وسألوه إلام يدعو ؟

فلما اقترأ الآية قال مفروق، وكان أبهرهم جمالا ولساناً: (دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك) .

وهكذا نفذ نور الحق الجياش فى الإسلام إلى أبصار أهل النصفة فى جاهليتهم .

فماذا بقى من حظوظ الإدراك البصير للذين لم تعطفهم للإسلام حقائقه الباهرة وآياته الظاهرة فى عصر النور ومع ما يتبجحون بالحصول عليه من ألقاب علمية ومؤهلات عالية ، وهؤلاء علماء السوفييت يعودون للدين كما روت جريدة الأخبار القاهرية فى العدد (٢٩٩٥) بتاريخ ٢٩ / ٢ / ١٩٦٢ قالت : (أخذت الروح الدينية تسرى فى أوساط العلماء السوفييت) — نشرت جريدة نيويورك تايمز مقالا لمراسلها فى موسكو قال فيه : (إن عدداً من علماء السوفييت قد استخلصوا من أبحاثهم العلمية فكرة روحية عن الكون ، وصاروا يعتقدون بوجود قوة تتجاوز الوظائف العقلية للبشر) .

والقوم هناك تثور فيهم نخوة وكرامة أحياناً ..

أين من أيسرها (علاء الدين حامد) وكثيرون من أدعياء الفكر فى هذه الأيام ؟!

وتروى الأهرام القاهرية فى ١٠ / ٥ / ١٩٦٢ ما يلى :

(موسكو ٩ — أ ب : صدقت المحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات السوفييتية على حكم الإعدام الصادر ضد شاب فى الثلاثين من عمره يدعى كيزانوف ، لأنه اغتصب ثلاث فتيات ، دخل منازلهن بحجة أنه من موظفى إدارة الغاز ثم ارتكب جرائمه) .

هذا فى روسيا الملحدة .. أما فى بعض الدول الغربية فهناك الشذوذ الجنسى ونوادى العراة والمطاعم والمقاهى التى تستعمل نساء عاريات الصدور والظهور .. والبقية تأتى .

وكم يضحك الثكالى أننا نجد بعض المغتصبين الذين لايحكم عليهم القضاة بما يحكم على أمثالهم فى روسيا .

فإلى الإسلام .. دين الحياة عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، ومنطلق سيادة وسعادة ، وينبوع عزة لا ينضب ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[1].

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٨

الاسلام دين الجهاد العادل

الإسلام يوجب العمل ويحث عليه ويرغب فيه .. قال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »[١].

ودين الله برىء الساحة من اتهام من يتهمونه بغياً وعدواً بأنه (أفيون الشعوب) ، وهو الدين الذى يحاكم الناس إلى عقولهم فى عقيدته وشريعته وتكاليفه، ويقول رسوله صلوات الله عليه : (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها) .

يرجف أقوام بالإسلام ، فيرونه معوقاً عن العمل ، وصارفاً عن النشاط فى مجالات الخلافة عن الله لازدهار الحياة ، وإبلاغ الأحياء أكبر نصيب مما خلقه الله من أجلهم فى ملكوت السموات والأرض ، قال تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم »[٢].

وقال : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »[٣].

وجلت أنعم الله الذى يمتن علينا ببعض آلائه فيقول : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار *

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٥ (٢) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥
(٣) سورة يونس ، الآية ١٤

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »(١).

وقال : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٢) .

وقال : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »(٣).

وقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »(٤).

ولم نتتبع ما أسبغ الله علينا من نعمه الظاهرة والباطنة فى آيات القرآن الكريم ، مجتزئين بهذه الآيات ، رغبة فى أن نقف لحظات أمام قوله تعالى : « ليبلوكم فيما آتاكم » — « لينظر كيف تعملون » — « فامشوا فى مناكبها و ... » — « فانتشروا فى الأرض » ... فهى دلالات عمل على طريق الإسلام لا تخفى على بصير .

يقول المشير أحمد عزت باشا فى كتابه القيم (الدين والعلم)(٥) :

(من الطعون الموجهة إلى الدين المحمدى أنه مانع للرقى والتقدم ، ومثل هذا الطعن جد غريب ، لوجود أوامر إلهية ، وسنن نبوية مرغبة فى السعى والجهاد ، مانعة من التعطل والكسل ، وحاثة على تحصيل

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٢-٣٤ (٢) سورة الجاثية ، الآيتان ١٢ و ١٣
(٣) سورة الملك ، الآية ١٥ (٤) سورة الجمعة ، الآية ١٠
(٥) كتبه رحمه الله بالتركية ، وترجم هو بعضه إلى العربية ثم لقى الله فأتم أساتذة كبار ترجمته .

العلم ، واكتساب الثروة المشروعة ، ومؤثرة للأغنياء الشاكرين على الفقراء الصابرين ، كقوله تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »[١].

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[٢] .

« ... ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٣] .

وكقوله صلى الله عليه وسلم : (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها) .

وقوله : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) .

ثم تساءل : (أين الدليل الذى استخرجه المخالفون من القواعد والقوانين الإسلامية لإثبات دعواهم ؟) .

... إن العمل فى الإسلام — وفى كل دين سماوى — هو ثمرة العقيدة الحقة ، ومظهر الإيمان الخارجى ، ومجال التنافس بين الناس ، وميزان التفاوت والتفاضل بين الذين ترفعهم أعمالهم ، أو تهوى بهم فى مكان سحيق ، وهو المرآة التى يرى الله فيها البر والفاجر ، والأمين والغادر ، والمحسن والمسيء ، وعلى أساس من العمل — وحده — دون نظر إلى أحساب أو أنساب أو ما وراءهما مما تواضع الناس على اعتباره مدعاة للترفع أو الامتياز ، تكون العقوبة أو المثوبة عند الله ، يوم يوفى الناس أجورهم فلا يظلم مثقال ذرة ..

قال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون »[٤].

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ (٢) سورة الزمر ، الآية ٩

(٣) سورة القصص ، الآية ٧٧ (٤) سورة الأحقاف ، الآية ١٩

وقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »[١].

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) . أخرجه الإمام ومسلم.

فالقلوب أوعية عزائم الخير ، وهى مصانع بواعث السوء ، والأعمال التى ينظر الله إليها هى نهايات البواعث والنيات، وعليها — إن صحت وصلحت — تقوم صروح الحياة ويشرق وجهها ، ونكون بها — كما كان أسلافنا بالعمل ، لا بالتمنى والأمل — « خير أمة أخرجت للناس » .

ولقد كان العمل بعد توحيد الله تعالى من أول ما أمر به الرسول صلوات الله عليه ، ودعا إليه قريشاً : (... والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالخير خيراً وبالسوء سوءًا) .

وكان يقول لخير أهله عليه ، ما يقوله لسائر الناس : (يا فاطمة بنت محمد ، اعملى ، فوالذى نفسى بيده لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة محمد ، اعملى ، فوالذى نفسى بيده لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس عم محمد ، اعمل ، فوالذى نفسى بيده لا أغنى عنك من الله شيئاً ، لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم ، من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

فكان أهل النبى — رضوان الله عليهم — أشجع الناس فى ساحات القتال ، وأندى الناس وأجودهم فى ساعات العسرة ، وأحرصهم على طاعة الله ، وأغزرهم خشية منه ، ومراقبة له ، وأبقاهم على وُدّ ، وأحفظهم لعهد . واسألوا التاريخ، فبطولات حمزة سيد الشهداء فى أحد

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ و ٨

وجعفر الطيار فى مؤتة ، وأبو الحسنين علىّ كرم الله وجهه فى الهجرة وبدر وسائر المغازى بعدها ، وصفية بنت عبد المطلب حين لم ينشط حسان شاعر الرسول لردّ يهودى تسلل إلى مكان نساء أهل النبى اللواتى استخلف عليهن الرسول يوم الأحزاب حساناً رضى الله عنه ، فابتدرت صفية إلى اليهودى فصرعته بعمود ألقته عليه ، رضوان الله عليها ، ثم أتمت ما بدأت فألقته بعيداً .. وبطولات وراءها تؤلف أسفاراً ، وتصنع إلى آخر الزمان لأهل رسول الله إلى شرفهم مجداً وفخاراً .

والعمل فى الإسلام عنوان كبير ، لكل ما يحب الله من المؤمنين من معالى الأمور ، فالعبادات أعمال ، والمبرات وكريم الروابط والصلات أعمال ، وأداء الواجبات لتحصيل الرزق وقضاء ما وضعه الله فى أعماقنا للحياة من حق ، حتى تبلغ بنا كمالها الممكن ، والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وتأمين عباده ومقدساته فى شتى بلاده ، أعمال تسعد العاملين عاجلا وآجلا ..

وفى الحديث أن رجلا سأل النبى صلوات الله عليه : أى الأعمال خير ؟ فقال : الصلاة لوقتها .. فعاد يسأل : ثم أى ؟ فقال النبى : برّ الوالدين ، وسأل الصحابى ثالثة : ثم أى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الجهاد فى سبيل الله .

والأمور الثلاثة من أمهات الأعمال ، ولها جلالها ومكانتها فى الإسلام ، فالصلاة عماد الدين ، كما يقول الصادق المصدوق ، وهى وفضيلة الصبر ، خير معوان على النصر ..

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين »[١].

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٣

وحق الوالدين فى البر والإحسان ، قرين حق الله فى العبادة والشكر فى آيات ذوات عدد من القرآن ، قال تعالى :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً »[١].

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً »[٢].

« أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير »[٣] .

ولقد جعل الله رضاه — ورضاه أجل هباته وعطاياه يوم نلقاه — فى رضى الوالدين ، وجعل سخطه فى سخطهما ، كما قال النبى صلوات الله عليه ، ونعوذ بالله من موجبات سخطه ..

والجهاد فى سبيل الله هو الدرع الواقية للمؤمنين حين يتفاقم الشر ، ويتآمر الكفر ، ويكيد الحاقدون ، وما ينبغى أن ندع البغاث بأرضنا يستنسر ، وشذاذ الآفاق يمسكون منا بالخناق ، ثم ننتظر أمداد السماء ! ! فالله تعالى يقول : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم »[٤] .

وقال تعالى : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »[٥] .

والقرآن منذ أنزله الله على مصطفاه ، يحذرنا من يهود ، بمثل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ،

(١) سورة النساء ، الآية ٣٦

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٢٣

(٣) سورة لقمان ، الآية ١٤

(٤) سورة محمد ، الآيات ٤ — ٦

(٥) سورة النساء ، الآيتان ٧٥ و ٧٦

ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور »[١] .

يقول المشير أحمد عزت باشا فى كتابه (الدين والعلم) رداً على (كاميل فلامريون) وغيره ممن زعموا أن الإسلام يلقن أهله كراهة أهل الأديان الأخرى :

(وليس فى الدنيا دين فيه سماحة مع سائر الأديان بقدر ما فى الإسلام ، فالإكراه ممنوع فى تلقين الإسلام ونشره ، وهذه القضية ثابتة بالقرآن والأحاديث النبوية ، كقوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[٢].

وقوله : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[٣].

وكقوله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا دعوة المظلوم — وإن كان كافراً — فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) .

فكلها ناطقة بصحة دعوانا .

إن اليهود الذين زعموا أنهم (أبناء الله وأحباؤه) فأبطل الله زعمهم بقوله لمصطفاه :

« قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق »[٤] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١١٨ و ١١٩
(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٥ (٣) سورة ق ، الآية ٤٥
(٤) سورة المائدة ، الآية ١٨

هم أعداء الله وأعداء رسله ، ألم يكفروا بالله ، ألم يحرّفوا كلماته ؟ ألم يقتلوا رسله ؟

« إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »(١) .

ثم ألم يقولوا فى مريم عليها السلام بهتاناً عظيماً ؟ ألم يحاولوا قتل عيسى عليه السلام حتى رفعه الله إليه ؟ ألم يكونوا يتوعدون خصومهم فى المدينة قبل هجرة النبى صلوات الله عليه ، وأنهم سيقاتلونهم تحت لوائه ، فكان الأمر كما قال تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »(٢) .

ثم أليسوا هم الذين كتب الرسول صلوات الله عليه بينه وبينهم عهداً ، كان فيه أرحم وأكرم من واثق ، حين جعل لهم ماله ، وعليهم ما عليه ؟ !

ولكنهم ، وفاءً لطبيعتهم فى الكفر والمكر والغدر ، ونقض كل عهد ، وخلف كل وعد ، أخلفوا الرسول ما وعدوه قبل أن يجف مداد ما كتبوه ، وكادوا لرسول الله ، وتآمروا لإلقاء صخرة عليه ، لو أصابته لقتلته وعدداً من أصحابه معه ، لكن الله الذى يعصم رسوله من الناس ، أظهره على ما دبروا ، فانحرف عن مسار الصخرة التى أصابت بعض صحابته رضوان الله عليهم !

« الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون »(٣) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢١ (٢) سورة البقرة ، الآية ٨٩

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٥٦

« أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون »[١].

وكانت حسراتهم كبرى يوم نصر الله رسوله والقلة المؤمنة معه فى بدر على قريش ..

وقالوا : (بطن الأرض خير من ظهرها بعد أن انتصر محمد على سادة الناس) يعنون قريشاً !

روى ابن هشام : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بنى قينقاع فى سوقهم ، وقال : يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم .

قالوا : يا محمد ، إنك ترى قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله إن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) ...

عن سالم مولى عبد الله بن مطيع عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس — كنيس اليهود — فقال : اخرجوا إلىَّ أعلمكم ، فخرج إليه عبد الله بن صوريا ، فخلا به ، فناشده الله بدينه ، وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المنّ والسلوى وظللهم به من الغمام ، أتعلمون أنى رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وإن القوم ليعرفون ما أعرف ، وإن صفتك ونعتك لبين فى التوراة ولكنهم حسدوك ! !

قال : فما يمنعك أنت ؟ قال : أكره خلاف قومى ، وعسى الله أن يتبعوك ويسلموا فأسلم ! !) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٠

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »[١] .

والشاة المسمومة فى خيبر ، وصنيع شاس بن قيس لإيغار صدور الأنصار بعضهم على بعض ، ولقد كاد يفلح فيما ابتغى وأمل ، لولا أن أطلع الله رسوله على ما كان ، فسارع صلوات الله عليه إلى الأنصار فذكرهم بنعمة الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، فأخزى الله الشيطان ، ورد إلى الإيمان خير عباده ، وامتن عليهم بذلك فى آيات فيها عظة لمن بلغتهم إلى يوم الدين ، قال تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[٢] .

جهاد هؤلاء اليهود لم يعد له بديل ، ولا مفر منه ، بعد أن حطمت جميع جسور السلام ، وأعانها على عتوّها وبغيها (قوم آخرون) .

والنبي صلوات الله عليه يقول : (من أعطى الذلة من نفسه راضياً غير مكره فليس منا) .

إن القتال فى الإسلام أحد ملامح هذا الدين الإنسانى ، فما هو غاية تراد ، وليس هدفاً يقصد ، ولكنه وسيلة فى دين الله لإعلاء كلمة الله وحماية حقه وتأمين عباده ومقدساته .

---

(١) سورة البقــرة ، الآية ١٤٦

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٠٠ — ١٠٣

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[١].

« أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ... »[٢].

واقتران المرابطة ، وهى عمل جليل من أعمال الجهاد ، حماية للثغور ، حتى لا يقتحمها عدو ، وصيانة للحدود ، كيلا يدخلها إلينا متسلل ، بالأمر بتقوى الله ، رجاء الفلاح فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »[٣].

ومن هنا تبرز إنسانية هذا الدين الإلهى العظيم ..

يقول السيد أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) :

(وقد قسم الإسلام العالم البشرى إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان ، وأنصار الحق وأنصار الباطل ، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان ، أينما كانوا ، ومن كانوا ، فقال تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »[٤].

(وهذه هى الحروب التى لم يشهد التاريخ أيمن منها ، وأقل إراقة للدماء ، وذهاباً بالنفوس ، ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك ، والسعادة الجمعاء ، فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) فى جميع الغزوات والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت إلى السنة التاسعة ، على ألف وثمانى عشرة

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ (٢) سورة الحج ، الآيتان ٣٩ و ٤٠
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٢٠٠ (٤) سورة النساء ، الآية ٧٦

نفساً (١٠١٨) المسلمون منهم مائتان وتسع وخمسون نفساً (٢٥٩) ، والكفار سبعمائة وتسع وخمسون نفساً (٧٥٩) !!

وقد ذكر مصدر هذا الإحصاء ، وهو كتاب فذ فى (سيرة رحمة الله للعالمين) لمؤلفه القاضى محمد سليمان المنصور ، الذى لم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

(وقدر (ماكستون) عضو البرلمان الإنجليزى أن المصابين فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ لا يقلون عن خمسين مليون نسمة) !!

هذه حروبنا ، وتلك حروبهم ، ويبدو أن الصهيونية العالمية قد غرّها نبل الإسلام وإنسانيته ، وهى تتمادى فى تحديها للعرب والمسلمين والأعراف الصالحة ، وتذهب بصلفها بعيداً عن الإنصاف من نفسها ، وتمكين الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، من أن يعودوا إليها أعزاء وافرين .

إن جهاد الصهيونية العالمية ومن ورائها الاستعمار بعامة والاستعمار الأمريكى بخاصة ، قد صار ضرورة حياة ، إن لم يكن استجابة لله ، فهى تحاربنا حرباً إن أفلتت منها ، فهيهات أن تواتيها فرصة أخرى ، تحارب بضراوة ، برغم جبنهم الذى كشف الله عنه القناع ، وهو يعلم من خلق، فقال : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »[١] .

وموقعة الكرامة بين المقاومة الفلسطينية وبين هؤلاء ، أرت الناس طبيعة هؤلاء الأعداء وقد ربطتهم الطغمة الباغية فى الأرض المحتلة

---

(١) سورة الحشر ، الآيتان ١٣ و ١٤

بالسلاسل فى مصفحاتهم ، كى لا يفروا منها أمام الفدائيين الكماة ! !

وقد رأينا ذلك بأعيننا وايْمُ الله ! !

أجل : يحارب هؤلاء حرب حياة أو موت ، حرباً مقدسة يقحمون فيها التوراة ، فيضعونها على مقدمة دباباتهم الغازية المتحدية ، مفتوحة الصفحات ، ويقول ديان : إن جندينا لم ينتصر فى ٥ يونيه ١٩٦٧ إلا لأن روح التوراة كانت تسرى فى عروقه .

ولابد أن نجاهد أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود جهاداً مقدساً نأخذ فيه الزاد والمدد من كتاب الله الذى يقول :

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون »(١).

« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً »(٢).

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم »(٣) .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »(٤).

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤١ (٢) سورة النساء ، الآية ١٠٤

(٣) سورة التوبة ، الآيات ١٣ — ١٥ (٤) سورة التوبة ، الآية ١١١

وأحاديث رسول الله وأعماله حوافز إلى الجهاد المقدس ، أليست غاية المؤمن أن يعيش عزيزاً أو أن يلقى الله شهيداً ؟ والنبى صلوات الله عليه يقول : (والذى نفسى بيده لا يقاتلهم اليوم — يوم بدر — رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة) . ويقول : (من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة — مقدار حلبها — وجبت له الجنة) .

ولقد تزاحم الصحابة فى الطريق إلى الجهاد وتنافسوا فيه ، واقترع الآباء والأبناء أيهم يخرج ؟ وأيهم يبقى ؟ وكانوا يستهدفون الحياة الكريمة بالإسلام ، أو لقاء الله دون ذلك شهداء ليخاطبوه كفاحاً بحجتهم .

إن الجهاد من خير الأعمال ، وهو دون سواه سبيلنا إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وقدوتنا إلى ذلك محمد صلوات الله عليه والذين آمنوا معه ..

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[1] .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩

أضواء اسلامية
على المجتمع الصالح

حين يتدابر الناس فى غير حق ، وتتنافر منهم القلوب ، وتتناكر الوجوه فى فترة من فترات الحياة ، ويمضون أفراداً وجماعات أوزاعاً ، لا تعطف بعضهم إلى بعض واشجة من وشائج الدين ، ولا تحكم وثاقهم رابطة من روابط القربى ، ولا تشد عراهم آصرة من أواصر الأخوة الإنسانية الجامعة ، يكونون بذلك أهون على الله ، وعلى الحياة والأحياء وعلى أنفسهم ، من غثاء السيل .. الذى لا تتعلق به نفس ، ولا يحسب حسابه أحد .. ويكونون كذلك واقعاً مؤلماً من نذير الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، فى قوله : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : لا بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى صدوركم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت) .

وحب الدنيا التى خلقها الله لعباده ، واستخلفهم فيها لينظر كيف يعملون وكراهية الموت .. وهو سبيل كل حى ، ونهاية مطاف كل موجود ، حيث يبدو الناس بعده على حقائقهم ، مجردين من ثياب الزور ، وأقنعة الإثم التى قضوا وراءها حياتهم — لا يفسحان فى رزق عبيد الحياة التى لم تزل تخايلهم بفتنها ، وحطامها الفانى ، حتى أنستهم مكانهم منها ، وداستهم بأقدامها وهى تدبر عنهم ، مقبلة على من

سواهم ، دون أن ينالوا منها غير ما كتب الله لهم . ولا يؤخران أجل الله إذا جاء ، فإذا قضى إلى هؤلاء أجلهم ، وخرجوا من الدنيـــا ولا حسنة لهم ، واستراحت كواهل الناس من ثقلهم الفادح ، لم تجزع لمهلكهم نفس ، ولم تبكهم عين .. وإنما يتنفس الناس الصعداء ، وهم يذكرون من مصارع الظالمين ، ومصاير المفسدين فى القرآن الكريم قول الله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين »[١].

قال الهيثم بن عدى : بينما حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسى يتذاكران أعاجيب الزمان ، وتغير الأيام ، وهما فى عرصة إيوان كسرى ، وكان أعرابى من غامد يرعى شويهات له نهاراً ، فإذا كان الليل صيرهن داخل العرصة ، وفى العرصة سرير رخام ، كان كسرى ربما جلس عليه ، فصعدت غنيمات الغامدى على سرير كسرى ! !

وهكذا تتقلب الحياة بالمفتونين بها عن الله ، بين لين وعنف ، وقسوة ولطف ، ووصل وصدّ ، وابتسام وعبوس ، وهى ، فى إقبالها وإدبارها ، كنار القش تذهب صاعدة فى الجو حتى تمتلىء بها العيون ، وتجتليها الأبصار ، ثم تحور بعد لحظات رماداً مكانه بين الأقدام ، وفى مهب الرياح ! !

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدراً »[٢] .

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ٢٥ - ٢٩ (٢) سورة الكهف ، الآية ٢٥

إن ميزة الإنسان الأولى ، هى أن يألف الناس ويألفوه ، ويودهم ويودوه ، على أساس من الحق الذى لا يعـرف بالرجال — كما يقول علىّ كرم الله وجهـه — ولكن الرجال يعرفون بالحق .. وفى أضـواء فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وبصراحة ووضوح لا يطويان خلالهما من عناصر الشر والفساد شيئاً ، وأن يكون المرء إيجابياً ، فعالا فيما حوله ، منفعلا بهم ، يعمل لله وللحياة مع إخوانه ، قدر إمكانه ، دون أن يجمد فى مكانه ، أو يعزل عن الركب نفسه ، فيكون مناخ الشيطان ووسيلته وسبيله إلى ما استهدف منذ كان من ضلال وخسران .

وإذا كان النبى صلوات الله عليه يقول : (إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد) .

فهو يقول : (.. إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) .

ويؤكد أن من شرار الناس من نزل وحده وجلد عبده ومنع رفده — عطاءه — وأن أكثر منه شراً من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره .

ولو أن كل واحد من هؤلاء أضاء — فى أقل القليل — شمعة على طريق الحياة ، بدل أن يلعن الظلمات — كما يقولون — لملأت هـذه الشموع بالنور دنيا النـاس ، وكشفت لهم معالم طريق الخلافة الحقـة عن الله ، وجعلتهم ، وجهاً لوجه ، أمام العزة التى قاسمها الله عبـاده المؤمنين فى قـوله : « ولله العزة ولرسـوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[1] .

ولعل اسم الإنسان يجلو معانى الأنس والانسجام والتفاهم والوئام التى لا يترابط الناس — بعد الإيمان بالله — بأمثل منها ، والتى تبعد عن طريقهم الوحشة والسلبية ولعنة (الأنا) التى أخرجت إبليس مذموماً

(١) سورة المنافقون ، الآية ٦٨

مدحوراً من حظيرة القدس ، وهى مخرجة أتباعه من سكينة الدنيا ودعة الحياة قبل أن يلاقوا حساب الله ..

والرسول صلوات الله عليه يقول : (المؤمن آلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) .

وما امتن الله على رسوله بقوله : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »[1] .

إلا بعد أن منحه من شريف الشيم ، وكريم الخلائق ، ما ذكره الله بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »[2].

إن الرفق بالناس يثمر استلانة قلوبهم .. فطالما استعبد الإنسان إحسان — كما قال شاعرنا القديم .. !

ولقد جبلت النفوس على حب من عرف لها كرامتها ، وصان عزتها ، وخالطها مخالطة بَرَّةً .. ومن مأثوراتنا :

(إن قلوب الناس وحشية ، فمن تألفها أقبلت عليه) .

(خالطوا الناس مخالطة إن عشتم حنوا إليكم ، وإن متم حزنوا عليكم) ..

وما يصنع ذلك سلطان قاهر يضمحل غداً ويزول — فكل حال لضده يتحول ، فإذا الذين كانوا بالأمس مقهورين ، قد أضحوا أعزة قادرين على الإعراب عن رأيهم ، والتعبير فى أنفاس الحرية عن وجوه نظرهم فى التعمير والبناء والإخاء والرخاء ، بحكمة وسداد ، لا بغدر ومكر وإفساد ..

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

« ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا »[(١)].

والنبي صلوات الله عليه يقول : (إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن من أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة ، الثرثارون ، المتفيهقون ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون العيب للبرآء).

وما أكثر ما تكلف الحياة الأتقياء الأنقياء من صعاب ، إنهم يرتفعون بأنفسهم عن المستوى الأخلاقى النازل فى مجتمع من المجتمعات المادية حين تقصر وسائلهم عن رد الشاردين عن الله إليه ، ويربأون بذواتهم عن التدلى إلى ما يخرون فيه إلى الأذقان من سفساف الأمور أقوام ، ولكنهم يعيشون فى الجو الذى سأل فيه الإمام أحمد بن حنبل حاتماً الأصم : كيف أسلم من الناس ؟

فقال حاتم : تعطيهم مالك ، ولا تأخذ مالهم ، وتقضى حقوقهم ، ولا تطالبهم بقضاء حقوقك ، وتصبر على أذاهم ، ولا تؤذيهم .

فقال الإمام أحمد : إنها لصعبة ..

فقال حاتم الحكيم : وليتك مع هذا تسلم[(٢)] ! !.

أجل ... إن السلامة من ألسنة الناس بعيدة المنال ، صعبة المدرك ، وما سلم الله سبحانه من عباده الذين يعطيهم بحكمته ، ويبتليهم بلطفه ورحمته ، ولا سلم النبيون والصالحون — عبر التاريخ — من ألسنة التافهين الذين لا يعرفون شرف الكلمة ولا أمانة القلم ، الذى هو فى أيديهم معول هدم ، وأداة تحريف للكلم عن مواضعه ، إرضاء لأنفس

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٤٣

(٢) وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٤٠

ناكبة عن الرشد ، وحرصاً على دنيا لو دامت لمن سبقونا ما صار شىء منها إلينا « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[1] .

وليكن سلوى الذين استحفظوا مواريث الخير والفضيلة ، مما ينبعهم به النابحون فى كل اتجاه ، هذا الأدب الربانى .

« يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »[2] .

ويقول مالك بن دينار : (من عرف نفسه لم يضره ما يقول الناس فيـه) .

ويقول الإمام الشافعى : (احرص على ما ينفعك ، ودع كلام الناس ، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة) .

والكلمتان تكشفان من أخلاق الناس جوانب لابد أن تكون قيد النظر وموضع الاعتبار .

فالمرء مسئول مسئولية كبرى عن أقواله وأعماله .. إنهما المرآة التى ينظر الله والناس من خلالها إليه ، بعيداً عما تواضعوا عليه من أحساب وأنساب وألقاب ، ودرجات علمية لم يطل بها ذووها على جمال الحق والخير ، ولم تهدهم إلى ما يجب لله من ولاء ، ولدينه من اتباع وإذعان ، بعد أن عرف أعداء الإسلام من وراء حدوده وبلاده دوره الرائد فى وضع أسس العلوم المادية والتجريبية ، وجهده الكبير فى دعم جوانب الحضارة الإنسانية التى تنظر للإنسان — أنفس مخلوقات الله — من كلا جانبيه المادى والروحى على السواء ، لا الحضارات

(١) سورة البقـرة ، الآية ٧٩ (٢) سورة الأحزاب ، الآيات ٦٩ — ٧١

التى تطلق الإنسان من عقال الإيمان ، وفضائل النفس وراء شهواته ونزواته وأنانيته ، غافلا عن هتاف الفطرة الخيرة فى أعماقه : (وتعس من ليس له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) كما قال معاذ ابن جبل رضى الله عنه ! !

وأين أنباء قيام المحافل الكبرى وقعودها فى دول الحضارة الصناعية فى أميركا وانجلترا فى سبيل شرعية الشذوذ الجنسى ولوثات الجنس الكثيرة ، ومن مثل قول نابغة الإنجليز برناردشو : (إن الإسلام هو دين المستقبل) .

وما نستظهر بمثل هذا القول على كمال دين الله ، فكماله وجلاله من ذاته وتشريعاته التى تغنى فى كل زمان ومكان عن ذل الاستعارة ، ولا يسد غيرها — أين كان مصدره — مسدها بحال ..

قال الأستاذ المستشرق (فبرى) لهاشم أفندى ولى أحد أدباء تركيا : (إن فقهكم الإسلامى واسع جداً إلى درجة أنى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم)[1] .

والرجل يصرفنا عن كثير مما فتن عبيد كل جديد من المذاهب والأفكار والتقاليد ، ويرى أن تراثنا الإسلامى لا ينبغى أن نلتفت معه إلا إلى ما صلح وواءم طهر الإسلام وشرفه وعفته (فالحكمة ضالة المؤمن فى أى وعاء وجدها التقطها) كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

بينما يريد البعض أن يحملونا على واردات هذه الحضارات ما ساء منها وما سر ، وما نفع وما ضر ، تاركين فى ذلك قيم الإسلام الصالحة ،

(١) من المجلة الشرعية المصرية عام ١٩٤٣ بتصرف .

وما أرسى من وجوه الحياة الراشدة ، وقواعد الخير التى لا يضل من أخذ نفسه بها ، ولا ينجرف عنها قيد شعرة إلا مفارق للإيمان ..

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما »[1].

قال الأستاذ (شيرل) الكاثوليكى المذهب وعميد كلية الحقوق بجامعة فيينا فى مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧ :

(إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون — نحن الأوربيين — أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألف عام) ! !

هكذا تدابر حماة الحق ، والذين يخدعهم ما يحيط بهم من أضواء هى أشبه شىء بشمس الشتاء ، وما أثلوا من مال ، هو إن لم يجىء من شريف المكاسب ، ولم ينفق فى حسان الوجوه ، فإنه هلاك لجامعه ، وميراث يتقاسمه من لم يعرق لهم فيه جبين ، ولم تتعب يمين ، وصاحبه فيه كما قيل :

كدودة القز ، ما تبنيه يهلكها   وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

ذكر ابن عائشة قال : كان الخليل بن أحمد يحج سنة ويغزو سنة — أيها الأدباء والمفكرون — إلى أن مات . بعث إليه سليمان بن على الهاشمى بطرف وكساء وفاكهة ، فقبل الفاكهة ورد ما سواها ، وأرى الرسول ما بين يديه من خبز يابس . قال : ما عندى غير هذا ، وما دمت أجده فلا أحتاج إلى سليمان ولا غيره !

فقال الرسول : فأبلغه عنك ؟ فقال :

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٥

أبلغ سليمان أنى عنه فى دعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سخا بنفسى أنى لا أرى أحداً
يموت هزلا ، ولا يبقى على حال
والرزق عن قدر ، لا العجز ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس ، لا فى المال نعرفه
ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فهل تلتقى الوجوه والقلوب على الحق ؟! ويمضى الناس بهدايات الإسلام ، وملامح هذا الدين المسفرة الحانية إلى المجتمع الصالح الذى يكونون فيه مرة أخرى كما قال الله فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ؟ »[1].

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

فطرة الله ومنطق الحياة

يطيب البذل ويعذب العذاب فى سبيل إدراك كريم الغايات ، وتكون التضحيات الجسام ركائز خلود المبادئ الهادفة ، وقوائم بقاء الغايات السامية إلى أبد الدهر ..

يبــدو صدق هــذه القضايا ، لأول نظرة ، فى تاريخ الرسول والرسالة التى صنع الله بها « خير أمة أخرجت للناس » ، فلقد أرسل الله رسوله محمداً صلوات الله عليه ، بالهدى ودين الحق ، إلى النـاس كافة ، عربهم وعجمهم ، وإنسهم وجنهم ، قال الإمام ابن كثير فى (ج ١ ص ٣٤٤) عنـد تفسيره لقوله تعالى : « فإن حاجوك فقـل أسـلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أُوتوا الكتاب والأمـّيّين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقـد اهتدوا ، وإن تولوا فإنمـا عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد »[١] .

قال : (وهذه الآية وأشباهها من أصرح الدلائل على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرروة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث) .

ثم ذكر رضوان الله عليه ، من ذلك جملة طيبة .

والله تعالى يقول : « تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »[٢].

ويقول : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً .. »[٣] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ (٢) سورة الفرقان ، الآية ١

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١

ويقول : « وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. »[١] .

قال سعيد بن جبير رضى الله عنه : (من بلغه القرآن فقد رأى محمداً صلى الله عليه وسلم) .

وقال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »[٢] .

وقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »[٣] .

وقال : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده »[٤] .

وفى سبيل اجتماع الناس على عقيدة التوحيد دعا الرسول صلوات الله عليه قومه ، وتدارك الله به العرب من فرقة كادت تأتى عليهم من القواعد ، وضلال قاسموا به ما استشرى فى فارس والروم من شرور ومفاسد ، وكان صلوات الله عليه كما قال منذ أول يوم ، الرائد الذى لا يكذب أهله ، فرأب بالإسلام صدعهم ، وكفكف دمعهم ، وبصرهم طريق الله ، وجاءهم بخير ما جاء به نبى قومه ، ورطب نفوسهم بأن التعاون والتآخى وصدق الوداد والاتحاد بين الجماعات والأفراد ، ضرورة لا بد منها للتعايش الصادق ، ووسيلة لا معدى عنها فى فرصة حياة صادقة ، لا يعصم الناس فيها من الضياع فى أودية الضلال سوى دين الله .

قال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »[٥] .

قال تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق * ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب »[٦] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٩
(٢) سورة سبأ ، الآية ٢٨
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧
(٤) سورة هود ، الآية ١٧
(٥) سورة التغابن ، الآية ١١
(٦) سورة الحج ، الآيتان ٣١ و ٣٢

وصدق الله العظيم : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[١] .

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »[٢] .

كان توحيد الله ووحدة الكلمة أول ما استهدف النبى فى مكة ، وبقى صلوات الله عليه يشد بهما عرى أصحابه ، ويحكم وثاقهم طوال ثلاثة عشر عاماً ، حتى هاجر إلى المدينة فأرسى على قاعدتى التوحيد والاتحاد كل فضائل هذا الدين العظيم .

فالعبادات الإسلامية كلها لله ، فله — وحده — تعنو الوجوه ، وتخشع الجباه ، ويجد المؤمن نفسه فى رحاب ربه عزيزاً كريماً كما خلقه مولاه ..

يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى : (أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه) أورده ابن كثير بسنده فى تفسير الآية التالية .

ويقول فى كتابه الخالد : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[٣] .

ويقول : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ، يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين »[٤] .

عاش المسلمون فى مكة إخواناً بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معانى الأخوة ، « إنما المؤمنون إخوة ... »[٥] ؟

ولقد ذهب الرسول فى مجال الرفق بعتاة قريش مذاهب لا يطيق

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ٢ — (٢) سورة البقرة ، الآية ١٥١

(٣) سورة النحل ، الآية ١٢٨ — (٤) سورة البقرة ، الآيتان ١٥٢ و ١٥٣

(٥) سورة الحجرات ، الآية ١٠

مثلها البشر ، انطلاقاً مع فطرته البرة الرحيمة ، وابتغاء أن يجمعهم الله عليه ، ويهديهم بنبيه صراطاً مستقيماً ، ولكنهم كانوا فى بنى ثقيف كما كانوا فى مكة التى استجار الرسول من أهلها ببنى ثقيف ، فكان صلوات الله عليه من هؤلاء وأولئك ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

لقد كذبوه وآذوه وأغروا به سفهاءهم ومجانينهم ، فقذفوه بالحصى ورموه بالحجارة ، وفزع صلوات الله عليه إلى مولاه ، والدم الزكى يسيل من جوانب جسده الشريف ، فأجاره الله بملائكته الذين استأمروه فى أن يطبقوا جبال مكة على مكذبيه ، ولكنه صلوات الله عليه عفا عنهم ، وغفر لهم ، ودعا لهم بالمغفرة ، ونسبهم إلى نفسه ، واعتذر عن تكذيبهم له ، وأذاهم إياه ، فأدهش الملائكة ذلك الرفق الذى لم يروا له شبيهاً ، ولم يقفوا له على مثيل فى خلق الله ، وقالوا : (يا محمد ، صدق من سماك الرءوف الرحيم) .

وهم ينظرون فيما قالوا إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[1] .

أجل .. كان النبى الكريم كما وصفه صحابته : (ما خير بين أمرين إلا اختار أرفقهما ما لم يكن إثماً). وما فارق طبيعته من العفو والسماحة إلا حين كانت المؤاخذة حزماً وحكمة وسداداً يليق بالنبى العظيم .. قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[2] .

كان أبو عزة الجمحى يسبّ النبى ويفترى عليه بمكة الكذب ، وحارب الله ورسوله فى بدر ، حتى وقع أسيراً ، واستأذن عمر رسول الله

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

صلى الله عليه وسلم فى أن ينزع ثنيتى أبا عزة ، فأبى النبى ما أراد عمر وقال : (لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً) .

ولو قد وافق النبى عمر المهدى فى ذات الله ، الغيور على رسول الله ، ما جار صلوات الله عليه ولا ظلم ، فالله تعالى يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم »[١] .

ولقد سأل بعضهم ابن عباس : هل علىّ من جناح إذا أذيت من ظلمنى ؟!

فقال حبر قريش : لا ، فالله تعالى يقول : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم »[٢] .

وكان النبى صورة صادقة للنبل والفضل ، وهو يأخذ نفسه بقول الله تعالى : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور »[٣] .

وفى مرجعه صلوات الله عليه من حمراء الأسد — عقيب أُحد — كما روى ابن هشام ، أسر المسلمون أبا عزة الذى أخلف الرسول ما وعد حين منّ عليه صلوات الله عليه ، فأطلقه فى بدر لبناته اللواتى استشفع بهن إلى رسول الله ، وكان مؤملا أن تنفع أبا عزة سماحة النبى ونبله ، لكنه راح يحرض على رسول الله والذين كانوا معه ببدر حتى خرج المشركون وهو معهم إلى أحد — وقال أبو عزة يوم حراء الأسد : أقلنى يا رسول الله .

فقال صلوات الله عليه : (والله لا تمسح عارضيك بمكة ، تقول : خدعت محمداً مرتين ، اضرب عنقه يا زيد بن حارثة) ، فضرب عنقه .

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٨ (٢) سورة الشورى ، الآيتان ٤١ و ٤٢
(٣) سورة الشورى ، الآية ٤٣

وفى رواية أنه قال صلوات الله عليه : (إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت) ، فضرب عاصم عنقه .

إن الخلاف قد ينشب بين الناس ، ويفلح الشيطان وراء الخلاف الذى هو طبيعة بينة فى الأحياء الذين تختلف مشاربهم ونظراتهم للأمور ، فيوغر — لعنه الله — صدور بعض المؤمنين على بعض لأمر تافه أو سبب جليل ، ولكن الفضل دائماً لا يكون إلا لمن شف وجدانه ، وعف لسانه ، وعصمه إيمانه ، فلم تصرعه غريزة المقاتلة التى يسلم لها بعض الناس قيادهم كثيراً .

كان رجل يسب الصحابى الجليل أبا ذر الغفارى رضوان الله عليه ، كلما جمعهما ملأ ، أو التقيا فى طريق ، وكان أبو ذر يربأ بنفسه عن التدلى إلى درك خصمه ، ويقول : يا أخى ، لا تسرف فى شتمنا ، ودع للصلح موضعاً ، واعلم أننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه ..

فهو يدفع بالتى هى أحسن السيئة ، والله تعالى يقول : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم »(١) .

ولقد تفاخر عمرو بن الأهتم والأحنف بن قيس ، وتنازعا الرياسة فى مجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال عمرو : (إنا كنا وأنتم فى دار جاهلية ، وكان الفضل فيها لمن جهل ، فسفكنا دماءكم ، وسبينا نساءكم ، وإنا اليوم فى دار الإسلام ، والفضل فيها لمن حلم ، فغفر الله لنا ولك) .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤

فغلب عمرو بذلك على الأحنف ، وظفر بالرجل الذى تضرب الأمثال بحلمه وشجاعته النفسية ، فأين من هذه الأخلاق الإسلامية ما نذهب إليه فى جوانب أمتنا ، حين تختلف وجوه الرأى ، واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية — كما قال المرحوم أحمد شوقى فى قصة مجنون ليلى — إذا حسنت النية ، وسلمت من الأحقاد الطوية ، وتجرد القصد من الهوى المطاع ، والدنيا المؤثرة ، والأنانيات المدمرة لوحدة الكلمة ومصلحة الأمة ..

إن الله يجمعنا على سؤال الخير منه ، والفزع مما ينوب من الخطوب إليـه ، فهو الصمد المقصود فى الحوائج دون سـواه ، ونحن نقبـل بوجوهنا وقلوبنا فى الصلاة عليه ، والصيام له ، وأداء الزكاة ابتغاء مرضاته ، ونردد من آيات القرآن ما يدعو إلى اجتناب دواعى الهزيمة والانقسام ، وتمدنا فى ذلك السنة بمثل قوله صلوات الله عليه : (يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار) أخرجه الإمام البخارى .

إن التوحيد ووحدة الكلمة بعد أن أرسى قواعدهما الإسلام بالعقيدة الوطيدة والعبادات الواشجة ، وأقام على أساسها الأمة الفاضلة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هما فطرة الله ومنطق الحياة وذخيرة الحكمة عبر الأجيال .. فخذوا أنفسكم بهما حتى لا يقول قائل :

أمـرتهمـوا أمرى بمنعـرج اللوى
فـلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغـد ! !

المسلمون خير أمة . . .

كلمات الله تعالى وأحكامه يتقبلها المؤمنون بقبول حسن ، وتأنس لها نفوسهم ، وتطيب بها قلوبهم ، ولا يتقدمون عنها ولا يتأخرون قيد شعرة ، وهم يمنحون رسول الله ، صلوات الله عليه من الولاء والثقة وتصديق ما بلّغ عن مولاه بقدر ما قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] .

وقوله : « وإن تطيعوه تهتدوا »[2].

ولقد كانت قريش وأعداء التوحيد على ما هم عليه من لدد الخصام للنبي عليه الصلاة والسلام على مثل ذلك التقدير لصدقه صلوات الله عليه ، وما نحصى المواقف التى كانوا ينوهون فيها بالصادق الأمين حين تصحو ضمائرهم ، ويسلم وازع الفطرة الإلهية فيهم مما صنعته بهم أنانيتهم ورعاية صوالحهم الخاصة من كفر وجحود وإعراض وصدود .

ولقد اختلف أبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق وأبو جهل مرات إلى بيت رسول الله يسمعون قراءته فى الليل لكلام الله تعالى ، وسأل الأخنس أبا جهل : ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟! فقال أبو جهل : (ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يوحى إليه من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه) .

وقال النضر بن الحارث : (لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ،

(١) سورة الحشر ، الآية ٧ (٢) سورة النور ، الآية ٥٤

أرضاكم قولا ، وأصدقكم حديثاً ، فلما بدأ فى صدغيه عارض الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : إنه كاذب ! ! والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب) .

ولما أصاب السيل المنحدر من الجبال بناء الكعبة ، وأجمعت قريش رأيها بعد تردد وخوف على أن تصلح ما فسد من أمرها ، وتقيم ما اضطرب من بنيانها ، واستعانت على ذلك بالخبراء والعارفين من غير أهلها .. فلما بلغت بالكعبة ما أرادت واجهت أمراً كاد يثير بين قبائلها حرباً لا تبقى ولا تذر ، بعد أن حرصت كل واحدة منها على أن تذهب دون سواها بشرف وضع الحجر الأسود فى مكانه الباقى حتى الساعة وإلى آخر الدهر .. ورأى رجل كان أسنهم وكان شريفاً مطاعاً فيهم ، أن يحكموا بينهم أول داخل من باب الصفا عليهم ، ووافقوه على ما اقترح ، وكان ذلك الداخل محمد بن عبد الله قبل أن يوحى إليه ويصطفى صلوات الله عليه ، فلما رأوه قالوا بلسان رجل واحد : هذا الأمين ، قد رضيناه حكماً ، واستمع محمد إلى قصتهم ، وحقن الله به دماء لولاه لخضبت أرض مكة ، وملأ جوانبها من أشلاء قومها وجماجمهم الكثير ..

وعندما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب ، وكان ما يزال على شركه منابذاً رسول الله ورسالته : هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ قال : ما جربنا عليه كذباً قط ! !

وأمثال هذه الكلمات الصوادق فى صدق رسول الله لا تتناهى ، والله تعالى يقول : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »[1] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٣٢

والمسلمون يأخذون — بعد كلام الله ورسوله — ما صح من كلام الناس ، ويردون عليهم ما لم يرتبطوا فيه بأوامر الله ، وهدى مصطفاه ، وإلهام الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ورضى الله عن الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود إذ يقول : (لأن يهلكنى الصدق وقلما يفعل ، خير من أن ينجينى الكذب وقلما يفعل) !

ولقد حفل القرآن الكريم بشهادات ربانية فى شئون وأقضية تتصل بالعقيدة ، وأحداث الحياة ، وطبائع الناس التى يعلمها سبحانه وتعالى وحده ، قال تعالى : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون »[١] .

وقال : « إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين »[٢].

وقال : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيئوس قنوط * ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى »[٣].

وقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[٤] .

وتجىء شهادة الله للمؤمنين بأنهم « خير أمة » على صورة يتضاءل أمامها كل إشادة بأمة من أزل الدنيا وإلى أبدها ، ولا يمكن أن يوضع أمامها فى كفة ميزان ما يتبجح به ويتوقح ويستعلى اليهود ، وهم مع التجوز الكبير يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، حين يرددون قول الله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »[٥] .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ١ (٢) سورة المعارج ، الآيات ١٩ — ٢٢
(٣) سورة فصلت ، الآيتان ٤٩ و ٥٠ (٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨
(٥) سورة البقرة ، الآية ٤٧

ويكتبون ذلك على لافتتين ، إحداهما بالعبرية ، والأخرى بالعربية ، ويرفعونهما فى مدخل مدينة (بير السبع) العربية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، كما حدثنى فى العقبة الأردنية صديق فلسطينى ، وأحسبهم صنعوا ذلك فى أكثر من مكان بعد يونية ١٩٦٧ .. حتى لم يعد للآن فى أيدينا من فلسطين ذرة تراب .

ولو عقل هؤلاء اليهود ، والذين يعيشون بعقولهم ، والذين يطلقون منا ما يتردد فى خواطر الأعداء وعلى ألسنتهم كالببغاوات ، لأدركوا من سياق الآية بين ما سبقها ولحقها فى مواضع ذوات عدد أنها تنعى على بنى إسرائيل جحودهم لفضل الله ، وسوء صنيعهم معه جلت أنعمه .. بعد أن رزقهم من الخير ما لم يرزق سواهم ، وفضلهم على أهل زمانهم ..

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — رحمه الله — فى تفسيره لقوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون »[1] :

(وهذه النعمة التى أطلقها فى التذكير لعظم شأنها هى نعمة جعل النبوة فيهم زمناً طويلا ، ولذلك كانوا يسمون (شعب الله) كما فى كتبهم ، وفى القرآن أن الله اصطفاهم وفضلهم ، ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من الله منحهم إياها بفضله ورحمته ، فكانوا مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب ، وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكراً ، وأشدهم لنعمته ذكراً ، وذلك بأن يؤمنوا بكل نبى يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة للإعراض عن الإيمان ، وسبب إيذاء النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى محصور فيهم ، وأنه لا يبعث نبياً إلا منهم)[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٠ (٢) تفسير المنار ، ج ١ ، طبعة ٢ ص ٢٨٩ و ٢٩٠

ولقد فصل الأستاذ الإمام ما أجمل هنا فى تفسيره للآية (٤٦) من سورة البقرة ، وبما يدعم ما ذكرناه ، مما يقيم الحجة على بنى إسرائيل ، وأبواقهم ، ولا يبقى لهم منفذاً إلى فخر أو مباهاة ..

وقال الشيخ رشيد رضا : أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ، ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان ، فقال : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »[١].

(وقد سبق التذكير بهذه النعمة فى أول المحاجة ، ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة وهى أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به ، وذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بإيتاء الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفاراً ، فإذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار ، وتصغى إليها الأسماع ، كما تقدم فى تفسير الآية (٤٧) فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانياً بعد التوبيخ والتقريع لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذى يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما فى الآية التالية)[٢].

وهى قول الله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون »[٣].

قال تعالى فى الأمة الوارثة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. »[٤].

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٧
(٢) تفسير المنار ، ج ١ ، طبعة ٢ ، ص ٢٨٩ و ٢٩٠
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٢
(٤) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

إنها شهادة لم يطلقها العليم الخبير إطلاقاً ، ولكنه — سبحانه — اشترط لها شروطها ، وألحق بحكمه البصير فيها أسبابه وحيثياته ، ورضى الله عن أبي حفص عمر حيث يقول : (من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها)[1] .

وصدق أمير المؤمنين ، فما يكفى كى تكون من أمة أن تتسمى بأسمائها أو تنتسب إليها ، حتى ينهض بما تزعم اقتداء وعمل ، مما صح معناه ، ولم يختلف مغزاه عما قال الله ورسوله ، وإن اضطرب سنده واختلف فيه العلماء ، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن أقواماً غرتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) .

ودلالة ذلك آيات فى سور كثيرة من كتاب الله ، اقترن فيها العمل بالإيمان دائماً ، نذكر منها قوله تعالى : « والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : (إن فى القرآن آية لو عمل بها المسلمون لوسعتهم) ، ثم قرأ سورة العصر ..

وكان المسلمون لجلالة هذه السورة ، يقرأها بعضهم على بعض كلما تفرقوا من لقاء ، أو انصرفوا من مجلس ، عساها تتيح لهم أن يزنوا أنفسهم على ميزانها ، فيؤمنوا بالله ، ويعملوا الصالحات ، ويستهدفوا الحق على كل حال ، ويحرصوا على الفضيلة التى تدعم

---

(١) فى تفسير ابن كثير ج ١ ، ص ٣٩٦ عن قتادة : أن عمر رضى الله عنه حج حجة فرأى من الناس دعة ، فقرأ الآية وقال ما قال ...

الفضائل جميعاً ، وتعصم من السقوط فى مساخط الله ، فضيلة احتمال المكاره فى دفع المظالم وإصلاح ما فسد من أمور الأفراد والجماعات ، والارتفاع إلى حيث يرانا الله حيث يحب ، ولا يرانا حيث يكره ..

وفى اقتران العلم .. وهو قلب الإيمان ولبه .. بالعمل ، وهو النافذة التى يطل الله تعالى منها على عباده ، والمرآة التى ينظر فيها إليهم ، والمجاز الذى ينطلق منه المؤمنون إلى رضوان الله ورحاب الأمن فى جواره — يقول الإمام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : (يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل) ..

ويقول الإمام الغزالى : (العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم كيف يكون) ؟ ..

ولقد شكوا إلى كسرى أنو شروان أن جندياً فى جيشه ، يتسمى باسمه ، ولكنه ينهزم فى كل لقاء ، ويفزع كلما واجه الأعداء ، فكتب إليه كسرى : (إما أن تغير فعلك ، أو اسمك) !

إن شهادة الله للمسلمين بأنهم « خير أمة » توجب إعمال العقل ، وإنعام النظر فى موجبات هذا الحكم ، لنعرف المدى الذى بلغناه منها ، وندرك البون الذى يقوم بيننا وبينها ، وكم تكون المعرفة حجة علينا حين نحرزها ، ثم لا نحرص على أن ندرك بها الخير الذى يتيحه ويثمره العمل .. وإذا كان الله تعالى يوجب العلم ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات على سواهم ، ويباهى بالعلماء ، ويجعلهم فى مستوى شرف الإقرار بوحدانيته مع ملائكته ، فإن أبا الدرداء رضوان الله عليه يقول : (ويل للذى لا يعلم مرة ، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات) .

يقول الأستاذ الشيخ رشيد فى إجمال ما بسطه الإمام محمد عبده فى هذه الآية : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. » :

(إن الصحابة لم يفرطوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما وجدوا ، وإنما ضعف ذلك بعد انقراض أكثرهم ، وهذان الركنان بعد الإيمان بالله أعظم أركان خيرية الأمة ، فما عرض من التفرق الدنيوى ، والخلاف بعد مقتل عثمان ، لم يلبث أن زال بعد قتل علىّ ، لأن التفرق والخلاف لا يدوم فى أمة تقيم هذين الركنين ، ولو بغير نظام ، ولو كان لها نظام فى الصدر الأول ، لما وقع كل الذى وقع ، ألم يهد لك .. ألم يتبين لك .. كيف كان الناس يغلظون لمعاوية فى إنكار ما ينكرونه عليه حتى غير الصحابة منهم ؟

(الحق أقول أن هذه الأمة مافتئت « خير أمة أخرجت للناس » حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما تركتهما رغبة عنهما ، أو تهاوناً بأمر الله تعالى بإقامتهما ، بل مكرهة باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ومن سار على طريقهم من بعدهم ، وقد كان أول أمير منهم أظهر هذه الفتنة جهراً ، عبد الملك بن مروان ، إذ قال على المنبر : (من قال لى اتق الله ، ضربت عنقه)[1] .

وللسيد رشيد كلمة لا معدى عن ذكرها ، فهو يقول فى معنى تقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الآية على الإيمان بالله :

(والمتبادر عندى أن تقديمهما للتعريض بأهل الكتاب الذين كانوا يدعون الإيمان ، ولا يقدرون على ادعاء القيام بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم كانوا فى مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وادعاء

(١) تفسير المنار ، ج ٤ ، ص ٦٠

ما تكذبه المشايخ يفضح صاحبه ، فقدم ذكر الأمر والنهى ، لأنهم لا مجال لهم فى دعوى مشاركة المؤمنين فيه ، وأخر ذكر الإيمان الذى يدعونه ليرتب عليه بيان أنه إيمان غير صحيح ، لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح ، ولذلك قال : (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم)[١] .

إن المؤمن يرتفع بنفسه عما يريب ، ويأبى إلا أن يكون بكل مقام كالشامة بين الناس بالمسلك الحميد والعمل الرشيد اللذين يعلنان عما وراءهما من إيمان بالله وحرص على التزام صراطه المستقيم ، وهو لا يبلغ هذا المرتقى من الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من تقوى وطهر وبرّ ، وحتى يكره لهم ما يكره لنفسه من مقاربة ما يسخط الله ويوجب مؤاخذته ، وحتى يحب فى الله ويبغض فى الله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر جهد استطاعته ، بذلك يترابط المؤمنون ويتواصلون ويكونون (نصحة وادين) كما وصفهم نبيهم صلوات الله عليه .. والله تعالى يقول :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم »[٢].

والذين ينحرفون عن هذا المنهج الربانى لا تصلهم بحقيقة الإسلام واصلة ، وإنما هم منافقون ، ألم يقل الله تعالى :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم

---

(١) تفسير المنار ، ج ٤ ، ص ٦٤ (٢) سورة التوبة ، الآية ٧١

الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم »[1] .

ويا ويح مجتمع يرى بعض أهله المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، ويأمر بعضه بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويحسبون أنهم على شيء من المعرفة والعلم وفهم الأمور أكثر من الذين يدعونهم إلى كتاب الله ، ويضعونهم وجهاً لوجه أمام هدايات الصادق المصدوق رسول الله وصحابته الذين هم من بعده القدوة الطيبة والأسوة الحسنة ..

ويوم لا يقدم المؤمنون بين يدى الله ورسوله ، ولا يتبعون أهواءهم فى قضايا الحياة وأمور الوجود ، مؤثرين أمر الله ورسوله ، سيكون المؤمنون مرة أخرى « خير أمة أخرجت للناس » .. فهل نستجيب لله ورسوله ، ففى ذلك جلاء صدق العقيدة ، وطريق رضى الله ، وشاهد الإيمان الذى يتولى الله أهله ، ويجعل لهم من كل شدة فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ؟

« وإن الله لمع المحسنين » .

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٦٧ و ٦٨

الاسلام دين الاخاء والوفاء

من حق الذين ينتسبون إلى (هذا الدين) أن يفاخروا برباط الأخوة التى مجدهم الله بها ، وأثنى عليهم فقال : « إنما المؤمنون إخوة » .

والكلمات الكريمة جزء من آية من سورة الحجرات قدم الله بين يديها فى آيات حقوقاً لا تصدق الأخوة إلا بها ، فمن تطاول إلى هـذا الشرف الذى هو ضرورة حياة بقدر ما هو فطرة الله ، فليحب للناس ما يحب لنفسه من سلامة وكرامة ، وليصن نفسه عن التأثر بغير الحق ، والانفعال بما لم يتبينه من قول أو عمل ، وليحرص على أن يكون الإصلاح بين المتخاصمين والتقريب بين المتباعدين دأبه وغايته ..

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين * واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم * وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعـدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »[1].

وفيما أمر الله به ، ونهى عنه بعد هذه الآيات من سورة الحجرات — وأمثالها فى كتاب الله كثير — بيان لميزان الإيمان الذى نتآخى على

(١) سورة الحجرات ، الآيات ٦ — ١٠

شروطه ، ونتواصى فيه بالحق والخير ، ونتعاون على البر والتقوى .. قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم »[١] .

ولقد آخى الرسول — صلوات الله عليه — بالإسلام بين الذين آمنوا به من أول أيام الدعوة فى مكة ، وكان كل يوم جديد فى عمر الرسالة يشد عروة فى حبال هذه الأخوة ، فيبدو المسلمون بها وكأنما نماهم أب واحد ، وآواهم منزل واحد ، يرى المسلم أخاه ، فيرضى لرضاه ، ويأس لأساه ، ويقاسمه عن طيب خاطر ما واتاه من فرص الحياة .. وما أكثر من آثروا على أنفسهم كما مدحهم الله .

بهذه المشاعر الصوادق أنفق أبو بكر ماله على الدعوة الإسلامية ، وفى شراء ضعفة المسلمين الذين لم يجدوا للسلامة من أذى قريش حيلة ، وقدم الصديق رضى الله عنه ، فى هذه السبيل ، ما سيجده عند الله خيراً وأعظم أجراً ..

ويذكر التاريخ أن خليفة رسول الله أراد بلالا رضوان الله عليه على الأذان فى خلافته كما كان يؤذن للنبى صلوات الله عليه ، فاعتذر بلال بأنه يريد السفر إلى الشام كى يجاهد فى سبيل الله ، فإنه سمع النبى يقول : (أفضل الأعمال الجهاد فى سبيل الله) .

وأعاد أبو بكر القول على بلال حتى خيل (لمؤذن رسول الله) أن الصديق يشير إلى سابقة إعتاقه بلالا ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن كنت قد أعتقتنى لنفسك فاحتبسنى ، وإن كنت قد أعتقتنى لله فدعنى أجاهد فى سبيله .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٧١

فقال الصديق : (إنما أعتقتك لله) .

وهاجر المسلمون إلى الحبشة مرتين متآخين ، ثم هاجروا إلى المدينة غير مبالين بما خلفوا وراء ظهورهم فى مكة — بلد الله الحرام وبيته المحجوج — من مال وضياع ، سعداء بسلامة عقيدتهم أولا ، ثم بهذه الأخوة التى شد الرسول بها المهاجرين بعضهم إلى بعض وهو يؤاخى بينهم (أخوين أخوين) ، فلما بلغوا دار الأمن ، وجدوا فى المدينة أهلا بأهل ، فآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، ووجد المهاجرون إخواناً « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[١] .

إن الأخوة التى صنعها الله لأمتنا الماجدة لا ترتفع إلى مستواها أخوة النسب ، ولا يثبت أمامها فى موازين الفضل قرابة ولا سبب ، فهى ترجح على الأخوّات والبنوّات ومختلف الصلات ، فليس بين الله وبين عباده قرابة ، وإنما هو الإيمان الذى نظر إليه أبو حفص أمير المؤمنين رضى الله عنه وهو يقول لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : (يا سعد ، لا يغرنك فى الله أن يقال : سعد خال رسول الله ، أو صاحب رسول الله) .

وبهذه الأخوة آثر زيد بن حارثة رسول الله على أهله وعشيرته ، فخلع عليه رسول الله شرف أبوّته ، وبقى يدعى زيد بن محمد ، حتى نزل قول الله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم »[٢] .

« ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم »[٣] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ (٢) سورة الأحزاب ، الآية ٤
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٥

« ما كان محمد أبا أحـــد من رجالكم ولكن رســـول الله وخاتم النبيين »[1].

وبهذه الأخوة قاتل أبو عبيدة عامر بن الجراح أباه يوم بدر بعـد أن ألح الوالد فى قتل الولد ، وانصرف أبو عبيدة مرات عن مواجهة أبيه ، فلما لم يغنه ذلك من إصرار أبيه شيئاً قتله ، وأثنى الله على (أمين سر هـــذه الأمة) بقوله : « لا تجـــد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون »[2].

وبهذه الأخوة كان موقف سعد بن أبى وقاص من أمه ، قالت له حين أسلم : (لا أذوق طعاماً ولا شراباً ولا أستظل بظل ولا تكتحل عيناى بنوم حتى تكفر بمحمد) .

فقال لها : (والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً بعد أن هدانى الله إلى الإسلام ما تركته) .

لقد أشرب المسلمون هذه الأخوة منذ اللحظة الأولى التى ألف الله فيها بالإيمان والقرآن بين قلوبهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعم تناجى هـذه القلوب وهو يقول لأكثر من واحـد من أصحابه : (لا تنسنا من دعائك يا أخى) .

فظل الإسلام هو نسبهم الذى إليه ينتسبون ، حتى ليقول أحدهم :

أبى الإسـلام ، لا أب لى سـواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم !!

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤٠   (٢) سورة المجادلة ، الآية ٢٢

وحين اختير سلمان الفارسى رضوان الله عليه ليقسم بين المسلمين من عرب وفرس غنائم القادسية .. وهو امتحان عسير لإيمانه .. وكان بين الغنائم جواهر فارس وتيجان كسرى وأسورته التى وعد الرسول بها يوم الهجرة سراقة بن مالك الجعشمى ، نظر زعيم فارسى من الأسرى إلى سلمان شزراً ، وقال : يا سلمان ، إنها أمجاد قومك (تسلمها لهؤلاء العرب) ؟ !

وأصغى التاريخ إلى سلمان وهو يقول : (لست ابن الفرس ولكنى ابن الإسلام) .

استقبل المحظوظون هـذا الدين فرحين مستبشرين من كل لون وجنس ودين ، وكان بينهم فريق من آل بيت النبى صلوات الله عليه ، ويرحم الله حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس ، فقد سئل عن قول الله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى »(١) .

فقال سعيد بن جبير : (إلا أن تودُّوا محمداً فى قرابته) .

فقال ابن عباس : (لقد عجلت يا ابن جبير ، إنه لم يكن بطن من قريش إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قرابة ، فقال : لا أسألكم عليه أجراً ، بل أسألكم مودة القربى التى بينى وبينكم) .

وهذا الفهم الجيد من ترجمان القرآن ابن عباس ، يدعمه قول الله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك »(٢).

وقوله : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم »(٣) .

وجدّ كل تقى — صلوات الله عليه — يقول : (الجنة لمن أطاعنى وإن كان عبداً حبشياً ، والنار لمن عصانى وإن كان شريفاً قرشياً) .

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٢٢ (٢) سورة الزخرف ، الآية ٤٤
(٣) سورة الأنبيـاء ، الآية ١٠

وصدق الله العظيم : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً »[١].

بيد أن أبا بكر وسائر صحابة رسول الله كانوا ينزلون آل بيت النبي من نفوسهم أكرم منزل ، وكان أبو بكر يقول : (والله لقرابة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي) !

وروى الإمام البخارى بسنده أن أبا بكر قال : (ارقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته) .

وكان أهل بيت رسول الله أحرص شىء على الدعوة الإسلامية ، ورعاية كل سابقة فضل لصحابى ، وما كان أبو الحسن علىّ كرم الله وجهه يداجى الشيخين أو يجاملهما فى غير حق وهو يقول : لقد سبقا سبقاً بعيداً ، وأتعبا من بعدها إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة ، وطعن على الأئمة .

ويوم أفضى الخليفة الأول إلى جوار ربه راضياً مرضياً ، وعظمت فيه رزيئة المسلمين ، كان علىّ رضوان الله عليه ، من أشد الناس عليه لوعة ، وأغزرهم فيه دمعة ، ودلالة وفاء علىّ لأبى بكر تبدو من خلال كلامه فوق كل دلالة ..

أقبل علىّ بن أبى طالب مصدع القلب إلى بيت أبى بكر ، فوقف ببابه باكياً ، ثم قال : (يرحمك الله يا أبا بكر ، كنت — والله — أول الناس إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأحفظهم على رسول الله خلقاً وفضلا وهدياً وسمتاً ، فجزاك الله عن الإسلام ، وعن رسول الله ، وعن المسلمين خيراً ، صدقت رسول الله حين كذبه

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٩

الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت به حين قعدوا ، وسماك الله فى كتابه (صديقاً) فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون »[1] يريد محمداً ويريدك .

كنت — والله — للإسلام حصناً ، وللكافرين ناكباً ، لم تضلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت — كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى دينك ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين ، فلم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى ، والقوى عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى ، وتأخذه للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك) .

أجل .. ما كان علىّ يندب أبا بكر — رضوان الله عليهما — بعد مماته ، بعد أن ضنّ عليه بالمؤازرة والمناصرة فى حياته ، كما قيل :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادا

فطالما استشاره أبو بكر وعمر فى كل ما أُشكل من أُمور المسلمين فكان المستشار المؤتمن الذى يصدقهما الرأى ، ويمحضهما النصح ، ويخلص لهما المودة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال صاحب السيرة الحلبية :

(لما جىء ببنات كسرى — وكن ثلاثاً — مع أمواله وذخائره إلى أمير المؤمنين عمر ، أوقفهن بين يديه ، وأمر المنادى أن ينادى عليهن ، وأن يزيل النقاب عن وجوههن ليزيد المسلمون فى ثمنهن ، فامتنعن عن كشف وجوههن ، ووكزن المنادى فى صدره ، فغضب الخليفة لذلك ،

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٣

وأراد عمر أن يعلوهن بالدرّة، وهن يبكين، فقال له عليّ رضى الله عنه : مهلا يا أمير المؤمنين ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ..

إن بنات كسرى لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات الناس .

فقال عمر : كيف السبيل إلى العمل معهن ؟ فقال : يقـوّمن ، ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن .. فقومن، فأخذهن عليّ رضوان الله عليه ، فدفع واحدة منهنّ لعبد الله بن عمر ، فجاء منها بولده سالم ، ودفع أخرى لمحمد بن أبي بكر فجاء منها بولده القاسم ، ودفع بالثالثة لولده الحسين فجاء منها بولده على زين العابدين ، وهؤلاء الثلاثة فاقوا أهل المدينة ورعاً وعلماً !

... إنها الأخوة التي تلتمع فى رفق عليّ وهو يرد عمر عما عمـد إليه — أسرع — من الشدة مع بنات كسرى ، وفى فتواه المبصرة ، وفى تصرفه بين ابن أبي بكر وابن عمر وابنه الحسين ، بصورة من الإعزاز والرعاية ، تغنى عن كل دلالة على الأخوة ، وهى تنبع من سماحة هذا الدين العظيم .

وفى جامع بيان العلم (ج ٢ ص ٨٨) لابن عبد البر بسنده قال :

(رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر ، فهمّ عمر برجمها، فقال له عليّ : ليس ذلك لك ، قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين .. »[1] .

وقال : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً »[2].

(لا رجم عليها) . فخلى عمر عنها ، فولدت مرة أخرى لذلك الحد) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ (٢) سورة الأحقاف ، الآية ١٥

قال ابن عبد البر : ورجع عثمان فى خلافته عن حجبه الجد بالأخ إلى قول علىّ رضوان الله عليهما .

وأرانى أملى للقلم طويلا فى إيراد تناصح الصفوة الممتازة من صحابة رسول الله وتكارمهم ليبدو مجال الاقتداء لإخوة وأصدقاء يتحدث بعضهم عن بعض ، فيفحش فى القول ، ويستجيش سفساف الكذب والافتراء والتجنى ، وتفسير الأقوال والأعمال بغير ما تدل عليه ، وتعلن عنه ..

(وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) ، كما يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى يقول : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون »[١] .

يقول ابن الجوزى فى كتابه (تلبيس إبليس) : عن سويد بن عقلة قال : مررت بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . وينتقصونهما ، فدخلت على علىّ رضى الله عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مررت على نفر من أصحابك يذكرون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما بغير الذى هما له أهل ، ولولا أنهم يرون أنك تضمر لهما مثل ما أعلنوا ما اجترأوا على ذلك .

قال علىّ رضى الله عنه : أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الذى ائتمننى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل أخوا رسول الله ، وصاحباه ووزيراه ، وحمهما الله جميعاً .

ثم نهض دامع العينين ، يبكى ، قابضاً على يدى حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، وجلس عليه متكئاً قابضاً على لحيته وهو ينظر

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٥

فيها وهى بيضاء حتى اجتمع الناس ، ثم قام فتشهد ، بخطبة موجزة بليغة ثم قال :

ما بال أقوام يذكرون سيِّديْ قريش ، وأبوى المسلمين بما أنا عنه متنزه ، ومما قالوا برىء . وعلى ما قالوا معاقب ، أما والذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لا يحبهما إلا مؤمن تقى ، ولا يبغضهما إلا فاجر شقى ، صحِبا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ، ويقضيان ويعاقبان ، فما يتجاوزان فيما يصنعان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كان رسول الله يرى غير رأيهما ، ولا يحب كحبهما أحداً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض ، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بأن يصلى بالمؤمنين ، فصلى بهم تسعة أيام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض الله نبيه ، واختار له ما عنده ، ولاه المؤمنون ذلك ، وفوَّضوا إليه الزكاة ، ثم أعطوه البيعة طائعين غير مكرهين ، وأنا أول من سنَّ له ذلك من بنى عبد المطلب وهو لذلك كاره ، يود لو أن أحداً منا كفاه ذلك ، كان والله ، خير من أبقى ، أرحمه رحمة ، وأرأفه رأفة ، وأحسنه ورعاً ، وأقدمه سناً وإسلاماً ، شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بميكائيل رأفة ورحمة ، وبإبراهيم عفواً ووقاراً ، فسار بسيرة رسول الله ، حتى مضى على ذلك ، رحمة الله عليه ..

ثم ولى بعده عمر رضى الله عنه ، وكنت ممن رضى ، فأقام الأمر على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه ، يتبع أثرهما ، كما يتبع الفصيل أثر أمه ، وكان — والله — رفيقاً رحيماً بالضعفاء ، ناصراً للمظلومين على الظالمين ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وضرب

الله الحق على لسانه ، وجعل الصدق من شأنه ، حتى أن كنا لنظن أن ملكاً ينطق على لسانه ، أعز الله بإسلامه الإسلام ، وجعل هجرته للدين قواماً ، وألقى له فى قلوب المنافقين الرهبة ، وفى قلوب المؤمنين المحبة ، وشبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل ، فظاً غليظاً على الأعداء .. فمن لكم بمثلهما ؟! رحمة الله عليهما ، ورزقنا المضى على سبيلهما ، فمن أحبنى فليحبهما ، ومن لم يحبهما يبغضنى ، وأنا منه برىء ، ولو كنت تقدمت إليكم فى أمرهما لعاقبت فى ذلك أشد العقوبة .

ألا فمن أتيت به يقول بعد هذا اليوم ، فإن عليه ما على المفترى ، ألا وخير هذه الأمة ، بعد نبيها ، أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم الله أعلم بالخير أين هو ؟!

ولقد تذهب أرقام الحاسبين بدداً قبل أن تحصى أعمال رسـوله وأقواله فى دعم (أخوة المؤمنين) ، لكن اثنين من هذه وتلك يفرضان نفسيهما فلا أجد عن سوقهما هنا منصرفاً ..

وأولهما يرتبط بمكايد اليهود وعدوانهم الأثيم على فلسطين ومقدساتنا العزيزة فيها وعلى أجزاء عزيزة من بلاد الإسلام والعروبة .. ذلك أن شاس بن قيس قد غاظه وأحنقه واستثار سخائم نفسه أن يمر على الأنصار يوماً فيجدهم (إخوة) قد بدّد الإسلام ما كان بينهما من خصومات وتارات يوم كانوا (أوساً وخزرجاً) ، فأغرى عـدو الله أحد غلمانه فاندس بين المسلمين وذكرهم بيوم (بعاث) من أيامهم الدامية ، وفى لحظة من لحظات الضعف البشرى ، استثير الإخوة ، وتفرقوا على هذا الصوت الكريه الماكر إلى ديارهم يعدون السلاح لمعركة لا يعلم إلا الله ما تعقب من مكاره وأسواء ، وتفرق الأنصار صفين ، ينادى أحدهما : يا لأوس ، وينادى الثانى : يا لخزرج ، وكادت السيوف تتشابك ،

والرءوس تتساقط ، لولا أن بلغ أمر القوم النبى صلوات الله عليه ، فبادر إليهم ، فذكرهم بالإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وأعاد حلومهم العازبة إلى أماكنها منهم بعد أن غلبهم عليها الشيطان ، فألقوا السلاح ، وجللهم ندم ثقيل ، ومضى كل فريق يعانق أخاه ، والنبى صلوات الله عليه يقرأ عليهم قول الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[1] .

وكان ثانى الموقفين ، فى أخريات أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة ، ونصح الأمة ، وجعلها على قلب رجل واحد ، ونزل عليه قول الله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً »[2].

وأصابه — بأبى هو وأمى — مرض الموت ، فكان يمرَّض فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وبينما الصديق أبو بكر يؤمّ الناس فى الصلاة التى استخلفه النبى عليها ، وفى صبح يوم الاثنين الذى لبى فيه نداء مولاه ، ارتفع ستر حجرة عائشة ، وبدا الرسول ينظر وقد تحاذت منهم المناكب ، واستقامت الصفوف ، وتناجت القلوب ، وهو

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٠٠ — ١٠٣

(٢) سورة النصر

يبتسم صلوات الله عليه ، وتأخر أبو بكر ظناً منه أن الرسول يريد الصلاة ، وأشار صلوات الله عليه أن يتم أبو بكر والمسلمون صلاتهم ، ثم واراه الستر فلم يروه بعد ذلك ، صلوات الله عليه .

علام ابتسم الرسول ؟! وفيم كان يضحك ؟

لقد كان ذلك — لا ريب — من أجل توفيق الله له فى أداء رسالة الدين الذى جمع الله به الأرواح على الإخاء الصادق ، وجمع المسلمين صفوفاً متراصة متحابة يتناجون فيها بالبر والتقوى فى كل شأن ..

(ما من بطن من بطون قريش إلا وللرسول فيها قرابة) ، كما قال عبد الله بن عباس — إنها كلمة كبيرة تمس الحاجة إلى إدراكها وتفهمها عساها تمضى بنا إلى رعاية حق الإسلام ، وضرورة التآخى به مع الذين ينتسبون إلى دين الله .. إلى الإسلام العظيم ..

فأبو بكر يلتقى برسول الله فى مرة بن كعب ، وعمر يلتقى برسول الله فى كعب بن لؤى ، وعثمان — ذو النورين — يلتقى بالنبى صلوات الله عليه ، من جهة أبيه بعبد مناف ، وأم عثمان رضى الله عنه هى أروى بنت أم حكيم بنت عبد المطلب ، وهى توأمة عبد الله والد رسول الله ، ولعلى قرابته القريبة ، وشرف أصهاره كعثمان إلى الرسول .

وما زال يتردد فى خواطرنا وأسماعنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : (لا تنسنا من دعائك يا أخى) .

وقوله : (سلمان منا آل البيت) .

وقوله : (بلال جلدة ما بين أنفى وعينى) .

وقوله عن أم أيمن بركة الحبشية ، مولاته صلوات الله عليه : (أم أيمن أمى بعد أمى) .

وقوله عن أسامة بن زيد بن حارثة : (الحِبّ بن الحِبّ) .

ويقف المرء حائر القلب ، مستطار اللب ، أمام جحود أبي لهب ، ووفاء أبي طالب لابن أخيهما الوفيّ الحفيّ صلوات الله عليه .

هذا أبو لهب — عبد العزى بن عبد المطلب — يكذب رسول الله جهرة ، وفي غلظة يضاعف من وقعها أنها من عمٍّ كان يرجى نصره ، ويؤمل دفاعه في أول يوم يلقى فيه الرسول الناس بدعوة الخير ! !

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهنّد

وبينما قريش تملى لعقولها فيما خاطبها به الصادق الأمين — كما عرفوه — كان أبو لهب يرفع عقيرته بقوله لابن أخيه : (تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟!) .

وتعتصر الكلمة الآثمة الظالمة قلب رسول الله ، ويذهب — رغم أسى منها مكظوم — يتفرّس وجوه قومه ، ويتعرّف أثر ما دعاهم إليه وذكرهم به من حق الله في التوحيد والعبادة ، وأنه رسول الله إليهم جميعاً .. وتنكشف الحجب عن جبريل وهو يربط على قلب رسول الله بما أوحى الله لمصطفاه :

« تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب .. »[1].

ولا يتوقف جحود أبي لهب وعقوقه للنبي العظيم بهذا الوعيد المدمدم ، ولكنه يشغب على الرسول وعلى رسالته ، ما واتته فرصة ، ويقفو خطى النبي فيكذبه ويحاول صرف الأهل والعشيرة ، ومن جاء مكة ، عن تصديقه والإيمان به صلوات الله عليه .

روى ابن الأثير بسنده قال : (لما أنزل الله على رسوله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته

---

(١) سورة المسد .

كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ، فقال : ما اشتكيت شيئاً ، ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى .

فقلن : فادعهم ولا تدع أبا لهب معهم ، فإنه غير مجيبك .

ولعلهن نظرن فى ذلك إلى بادرة مجابهته الجافية للرسول ، أو لأنهن يعرفن — من مخايله وصفاته — قسوته وفظاظته) .

فدعا الرسول عشيرته فحضروا ومعهم نفر من بنى عبد المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلا ، فبادره أبو لهب فقال : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك ، فتكلم ، ودع العصاة — هكذا كانوا يسمون المسلمين — واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن قمت على ما أنت عليه ، فهو أيسر عليهم من أن تثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء بنى أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت النبى ، ولم يتكلم فى المجلس ، ثم دعاهم مرة أخرى ، وتكلم قبل أن يسبقه أبو لهب ، فقال : (الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، ثم قال : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها لجنة أبداً ، أو للنار أبداً) .

وانظروا فرق ما بين مشاعر عمّ وعمّ ..

قال أبو طالب لابن أخيه — محمد صلوات الله عليه — : (ما أحب إلينا معاونتك ، وما أقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى

ما تحب ، فامض لما أُمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب) ! !

فقال أبو لهب : (هذا — والله — السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم) . فقال أبو طالب : (والله لنمنعنه ما بقينا) .

وصدقت حياة أبى طالب قوله ، وكان أبو لهب أبر شىء للشيطان ، وهو يجفو ابن أخيه ، ويتابعه بالمخالفة والتكذيب كلما لقى وفداً مقبلا على مكة قبل الهجرة ، وبقى يحارب الله ورسوله حتى بلغه نصر الله للمؤمنين فى بدر ، ومصارع أئمة الكفر ، فقتله الحزن والكمد .

وما كان أبر محمداً وأوفر إنسانيته وحنانه ، وهو يسمع بعد الهجرة مرات وفى ليال متعاقبات رجلا يقرأ : « تبت يدا أبى لهب .. السورة » . فيقول صلوات الله عليه : (من ذا الذى يؤذينى فى أهلى) .

ولقد اختلف الناس فى قريش ، كما قال ابن أبى سمرة صاحب كتاب (طبقات فقهاء اليمن) ، فقال بعضهم : (كل من ينتسب إلى فهر بن مالك فهو من قريش) ، وقال آخرون : (... إلى النضر بن كنانة) .

والانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجب مزيداً من الاقتداء به ، وصيانة مواريث رسالته ، والحرص على بقاء وحدة أمته ! !

ولا بديل عن الأخوة الإسلامية لمن أراد شرف الدنيا وعز الآخرة .. ومن لم ترو مغارسها فى نفسه كلمة التوحيد ، وفرائض الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والسلوك الإسلامى الذى يعطف المؤمنين بعضهم إلى بعض ، فليعد النظر فى سلطان (هذا الدين) على قلبه .

قال تعالى : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »[١] .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما روى الإمام البخارى : (يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار) .

فمتى نترابط بهذا الدين ، ونلتقى به عدو الله وأعداءنا فى خط المواجهة وفى كل زمان ومكان ؟!

إن عدوّنا فى الأرض المحتلة يترابط بدين صنعه وابتدعه يبرأ منه موسى ، ولا يسيغه ضمير ، ولا يثبت أمام عقل بصير ، ويحاربنا اليوم بدينه المصنوع كما حارب آباؤه عيسى وأرادوا أن يقتلوه بعد أن قالوا عن مريم بهتاناً عظيماً . قال تعالى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ... »[٢].

وكما حاربوا محمداً وحاولوا قتله ، لولا أن صدقه الله وعده « والله يعصمك من الناس »[٣] .

هذا الدين هو سبيل عزة الأمس ، وهو سبيل عزة اليوم والغد ، ورحم الله أبا حفص عمر بن الخطاب فقد قال : (لقد أعزنا الله بهذا الدين ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله) ..

وقال : (كان العرب أُسداً فى جزيرتهم يأكل بعضهم بعضاً ، فلما جمعهم الله بمحمد لم يقم لهم شىء) .

فمتى نجتمع بالإسلام ، ونسود الدنيا مرة أخرى بهذا الدين العظيم ؟

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٩

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٥٦ و ١٥٧

(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٧

فى مستوى الأحداث

تبعات صانوها بالدماء :

كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام استحفظه الله إياه وهو سائله عنه (وكل راع مسئول عن رعيته) كما روت الصحاح من كلام رسول الله صلوات الله عليه .

فلا ينبغى أن يغض مسلم طرفه عن مكانه أو يغفل طرفة عين عن واجبه الذى وكله الله إليه وجعله مجال خلافته عن ربه فى عمارة أرضه وإصلاح كونه وإسعاد نفسه ، والذين يعيشون معه فى فرصة حياة واحدة ، والأجيال المتعاقبة التى ترث عملا فتعمل ، أو إهمالا واستهتاراً فيكون ذلك سبيل اتباع وقدوة والعياذ بالله .

ورعاية المسلم لمسئوليته وجه من جوه تكريم الله للإنسان ، وإذا كان الله تعالى يقول : « ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »[1] ، فإن الرسول صلوات الله عليه يقول : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع) .

وبنو الإنسانية لبنات فى صرح الحياة بعامة ، والمسلمون يمثلون ذلك فى كيان المجتمع الإسلامى الوارث ، وبقدر صلاح هذه اللبنات واستوائها وقوة ترابطها يقوى الكيان ويزدهر الوجود ويجنى الزمان أبرك الثمرات فى اضطراد سيره وتعاقب أطواره ، وعلى نقيض ذلك تكون الحال إن كانت اللبنات هشة غير متراصة ولا متماسكة .. إنها

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠

لا تعدو بهذه المثابة أن تكون عقاباً وعراقيل تعوق وتزحم على السائرين الطريق ، بينما تبدو كلوحاً وبثوراً منكرة كريهة فى وجه الحياة .

وفى هذه المعانى قرأت فى مقال للسيد أبى الحسن الندوى هذا المثال المعبر : إن مثلنا كمثل ملك أعلن أنه يريد حوضاً مملوءًا باللبن الحليب ، وأنه سيدفع ثمناً لكل من يجلب الحليب . فقال أحد اللبانين : لو أفرغت سطل ماء فإن هذا الماء لا يؤثر فى الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلا من الحليب ، وفكر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع .

وجاء الملك فى الصباح فوجد حوضاً مملوءًا من ماء ! ! !

وما أكثر الذين يتنكرون للتبعات الملقاة على عواتقهم ويخونون أمانات المسئوليات التى هى جوهر إيمانهم وإنسانيتهم ، ويرضون لأنفسهم أن لا تكون شيئاً ذا بال فى موازين الرجال ، ويمثلون فى الحقيقة أدوار اللبانين ، فتجىء العواقب والساعات العصيبة بغير ما احتسب الناس وأملوا من رخاء ورفاهية واستقرار وانتصار .

والتبعات والمسئوليات فى ثغور الإسلام لا تنحصر فى مداخلنا المائية الخاصة أو العامة ، ولا تعنى مجرد المنافذ على الحدود المشتركة بيننا وبين من يجاورنا بحق أو بجور وعدوان ، ولكنها تتسع مع ذلك لكل عمل وكل واجب وكل مهمة انتدبنا القدر للنهوض بها والاضطلاع بتكاليفها فى الميادين العسكرية والسياسية والزراعية والتجارية والصناعية والإدارية والتوجيهية ، وفى القمة منها « ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[1].

وحين يقوم كل بواجبه فى هذه الوجوه جميعاً سنسدّ كل ثغرة يمكن

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٢

أن ينفذ منها متلصص أو يجتازها متسلل ، أو يستطيع أعداء ديننا وأمتنا من المستعمرين الذين رددناهم من بلادنا على الأعقاب أن يجدوا منها إلينا سبيلا ، أو تبقى أملاً لبراذع المستعمرين من خوان أمتهم فى قدرتهم على إيغار الصدور وتقليب الأمور وبث دواعى الفتنة والانقسام « وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين »[١] .

وأداء الواجب فى هذه الوجوه يستحوذ مع ذلك كله على كل فراغ ، ولا يدع وقتاً يمكن أن يستغله فى الثرثرة والكلام التافه الذى تلوكه أفواه الفارغين ، فيبلبلون خواطر الناس وأفكارهم ، وعلى رأس المسئولين عن واجبهم أولئك العلماء الذين سلط عليهم أبو الحسن علىّ رضوان الله عليه الأضواء فقال : (لا يسأل الجهلاء لِمَ كَمْ يتعلموا حتى يسأل العلماء لِمَ كَمْ يعلموا) .

وحساب هؤلاء بين يدى الله كبير وشديد ، يقول أبو الدرداء رضى الله عنه : (ويل للذى لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات) .

وصدق الله العظيم : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ، فبئس ما يشترون * لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم »[٢] .

ومكان العلماء من إعزاز الله يجلوه القرآن وتضفيه السنة المطهرة ، ويتضافر المنصفون عبر التاريخ على إبرازه وتقديره ، وحسبهم أن الله باهى بشهادتهم بوحدانيته وسلكهم بذلك معه سبحانه ومع ملائكته

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٧ (٢) سورة آل عمران ، الآيتان ١٨٧ و ١٨٨

فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[١] .

فهم فى سلوكهم شواهد صدق بما يأمرون به من معروف وما ينهون عنه من منكر وإلا كانوا خلقاء بتمزيق القرآن الكريم لأرديتهم حتى يظهروا على حقائقهم .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »[٢] ، وأى انقسام فى الشخصية أظهر من حال أولئك الذين قد يتكلمون فيحسنون القول وربما ذرفوا دموعاً استبان الناس بعد أنها كانت دموع التماسيح ، لأن أعمالهم تجافى أقوالهم وتجىء على خلافها كثيراً ، وكأن أحدها فى أقصى المشرق ، بينما الآخر فى أقصى المغرب ، ولا وقار ولا اعتبار .

وهؤلاء يعطون الحجة لكل مستهتر متكبر جبار على أنفسهم ، إنهم يقولون : لا تثريب علينا فيما نفعل ، وهؤلاء القدوة يعملون مع كل اتجاه ، ويبدون فى كل مكان ، ويقاسمون فى كل إثم ، ولا يتورعون عما يريب ، ويتفكهون بالأكاذيب ، ناسين أن المعصوم صلوات الله عليه قال : (ويل للذى يتحدث فيكذب ليضحك الناس ، ويل له ثم ويل له) .

ويقول : (لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس) .

ويقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : (اجعل بينك وبين الحرام جزءاً من الحلال ، فإنك إن استفرغت الحلال كله هجمت نفسك على الحرام) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ (٢) سورة الصف ، الآيتان ٢ و ٣

وتاريخ العلماء حافل بأقوام كان يستسقى بوجوههم الغمام ، أدوا الأمانة ، وبلّغوا الرسالة ، ونصحوا لله ولرسوله ، دون أن يثنيهم عن ذلك بطش سلطان ولا جبروت حاكم ، وجاهدوا فى الله بأنفسهم ، فجمع الله لهم بذلك بين ميادين الجهاد وساحات الاستشهاد وميدان آخر يقول فيه النبي الكريم : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) .

لما استولى الملك الصالح على دمشق اصطلح مع الإفرنج الصليبيين على أن يعينوه ويسعفوه ضد أخيه ملك مصر وأن يعطيهم لقاء ذلك صيدا وقلعة الشقيف وغيرها من حصون المسلمين ، ودخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ، فاستفظع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضى القضاة صنيع سلطان دمشق ، وأفتى الناس بتحريم بيع السلاح للإفرنج وترك الدعاء للسلطان فى خطبة الجمعة ، وندد بخيانة السلطان للمسلمين ، وكان مما دعا به فى خطابه : (اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تنصر فيه وليك وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينتهى فيه عن معصيتك) .

فاعتقل الشيخ وعزل عن منصبه وأزمع الهجرة إلى مصر ، فلما أخذ طريقه إليها أدركه رسول السلطان وقال له : (إن السلطان عفا عنك وسيردك إلى منصبك على أن تنكسر له وتقبّل يده) . فقال الشيخ : (وكيف يا مسكين ، أنا ما أرضى أن يقبل السلطان يدى ، فضلا عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد) .

إن كلمة الحق يجهر بها العالم ابتغاء وجه الله وخير الناس ، لا تنقص عمراً ولا تضيع حقاً ، وربما فتحت أبواب خير لم يستشرف لها قائلها . روى صاحب الوفيات (ج ٤) :

لما ولى عمر بن هبيرة العراق وأضيفت إليه خراسان فى أيام يزيد

ابن عبد الملك استدعى الحسن البصرى وابن سيرين والشعبى ، وذلك فى سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : (إن يزيد خليفة استخلفه الله على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعته وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولانى ما ترون ، فيكتب إلىّ بالأمر من أمره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر مما ترون ؟

فقال ابن سيرين والشعبى قولا فيه تقية — حيطة وحذر —
قال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟

فقال : يا ابن هبيرة ، خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى الله ، إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لايمنعك من الله، وأوشك — صيغة تعجب من الوشك — أى السرعة — أن يبعث الله إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصر إلى ضيق قبر ثم لا ينجيك إلا عملك يا ابن هبيرة ، إن تعصِ الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

فأجازهم ابن هبيرة ، وأضعف جائزة الحسن . فقال الشعبى لابن سيرين : سفسفنا له فسفسف لنا ، أى لم نحدثه بحديث محكم مقنع فكان جزاؤنا نزراً .

وفى علمائنا اليوم من يقف شامخاً معتزاً بإيمانه ، يجاهر الأعداء فى القدس وغيرها برأيه ورأى العرب والمسلمين فى قرصنة الصهاينة ، بعد أن وضعهم الاستعمار فى بلادنا مخلب قط وجسراً يعبره أولئك المستعمرون إلى بلادنا كرة أخرى ، بعد أن تنفست منه الصعداء ، وعز عليه أن نشبّ عن الطوق ، وأن يردّوا على أعقابهم خاسرين .

وأولئك العلماء فى مواجهة الأعداء يردون إلى الأذهان أن عز الدين ابن عبد السلام جاوز المدى فى الجهاد بلسانه ، فلما هاجم الصليبيون دمياط وأزمعوا اكتساح الإسلام فى أعز دوله وأمنع حصونه .

كان الشعب على موعد مع الأعداء وأمامه أمراؤه وجنوده وعلماؤه وخطب العز وضاعفت خطبته من عزيمة الجهاد ، وكانت طالع يمن ، فلم يلبث المسلمون غير قليل حتى رفرفت رايات الانتصار .

« وما يبدئ الباطل وما يعيد » .

وكانت مواقف العز وبلاؤه فى غزو التتار للشام وتوجههم بعد ذلك لمصر مواقف إيمان عارم حتى جاء نصر الله فى (عين جالوت) ، وبقى العز بعد ذلك يجهر بكلمة الحق فى وجه الظاهر بيبرس .

إنها تبعات صانها الأسلاف بالدماء ، فليكونوا لنا أُسوة حسنة حتى يحق الله حقه وتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

تلك « ملامح من هذا الدين » أملاها قلب محب لدينه ، وسطرها قلم ارتاد لإخوانه فى الله خير ما يجول فى خاطر ، ويروق لناظر ، يتأمل كتاب الله وسنة مصطفاه ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

فهرس الكتاب

● التعريف بالمؤلف ●

معوض عوض إبراهيم :

● ولد عام ١٩١٢ فى قرية كفر الترعة الجديد ، مركز شربين محافظة الدقهلية ، بجمهورية مصر العربيـة .
● حفظ القرآن فى كتـاب القرية بإشراف شقيقة له كانت من الحافظات .
● طلب العلم فى معهد دمياط الدينى عام١٩٢٦ وحصل على الابتدائية عام ١٩٣٠ ، وكان بين طلاب معهد طنطا حتى حصل على الكفاءة ١٩٣٣ وعلى الثانوية ١٩٣٥
● وفقه الله فجمع بين علوم الأزهر والتعلق بدراسة الأدب وقراءة الكتب ، ومسايرة الحركات الأدبية والعلمية فى هذه الحقبة من الزمن وفيها نخبة الفقهاء والدعاة والأدباء والشعراء ، وكانت له محاولات فى الشعر والكتابة مبكرة .
● كان بين طلاب كلية أصول الدين من ١٩٣٥ — ١٩٣٩
● كان يسهم فى الدعوة هذه الفترة فى الجمعيات الإسلامية ونواديها ومجلاتها حتى تخرج عام ١٩٤١ بإجازة الدعوة من الدراسات العليا بالكلية .
● عمل واعظاً عام ١٩٤٢ متنقلا بين المنزلة دقهلية وأسوان والفيوم وبورسعيد ، وتنقل بالدعوة بين جوانب القطر .
● سافر مبعوثاً للأزهر إلى لبنان للوعظ والتدريس فى الكلية الشرعية فى بيروت قرابة ست سنوات ، شارك فيها فى الحركة العلمية والأدبية ، وأعد فى هذه الحقبة للنشر كتابه الأول (الإسلام والأسرة) وكتابه الثانى (قبس من الإسلام) .
● كتب الله لها الذيوع ، فرآهما الراءون ، وسعد بهما العارفون ، ووجدهما فى مواجهته حين زار اليمن عام ١٩٦٢ فور عودته من لبنـان ، وفى الأردن إبان بعثته إليها (١٩٥٦ — ١٩٥٩) .
● عمل مفتشاً للوعظ فى الأزهر الشريف والقوات المسلحة .
● تابع إذاعاته فى مصر وإذاعة جدة ، حيث كان من أوائل من أمدوها بكتاباتهم .
● أسهم فى الإذاعة والتليفزيون قبل سفره إلى السعودية مدرساً فى كلية الشريعة بالرياض عام ١٩٧٣ لمدة عامين .
● عمل باحثاً علمياً فى رياسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة برياسة الشيخ ابن باز وانتهى من بحث (أبى طالب) و (التيجانية) و (الخلفاء الراشدون) .

● عمل مدرساً لمدة ثلاث سنوات فى كليتى أصول الدين ، والحديث والدراسات الإسلامية فى المدينة المنورة حتى آخر عام ١٩٧٩

● كان رئيس إدارة الوعظ فى الكويت من ١٩٧٩ — ١٩٨٧

وفى هذه الحقبة — كما فى السعودية — أسهم فى حقل الدعوة إلقاء وكتابة ، وفى الإذاعة والتليفزيون .

● مؤلفاته ●

● صدر له فى الكويت بعد كتبه الأولى :

١ — إنسانية العبادات الإسلامية . ٢ — ملامح من هـذا الدين .
٣ — الإسلام والأسرة . ٤ — قبس من الإسلام .
٥ — مع الإمام البخارى فى صحيحه . ٦ — عنصر الهداية فى القرآن الكريم .
٧ — ركائز المجتمع المسلم فى سورة الحجرات . ٨ — ذلك الدين القيم .

● هذا عدا بحوث ومحاضرات وندوات إسلامية وأدبيـة .

● وقد أعد للنشر :

١ — نور من سورة الفرقان . ٢ — الشباب وماذا صنعنا له ؟
٣ — الإسلام يشق طريقه .
٤ — ما قل ودل : فى الدين والأدب والاجتماع .
٥ — من القلب : بعض الشعر الدينى . ٦ — أمـة ومنهج .
٧ — التقوى والمتقين . ٨ — السنة النبوية : دراسة ومنهج .
٩ — تحديد النسل ليس هو الحل : ١٠ — أوائل فى مجال القدوة .

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٤٧٥٤
الترقيم الدولى : ٦ — ١٩٢ — ١٦٣ — ٩٧٧

المطبعـــة العربيـــة الحديثـــة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفـــــون : ٨٢٦٢٨٠ القـــاهرة